

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

نفق الذلّ

رواية

سميرة المسالمة

نفق الذلّ

طبع في لبنان

نفق الذلّ

رواية

سميرة المسالمة



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1010-3

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com



e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

المحتويات

كشكولُ الأحلام

أخذتها الأيّامُ بعيداً، تقف على باب الجامعة تحمل دفترها المشهور بين زملائها بـ «جامع الأحلام»، تتحرّك بطمأنينةٍ وغنجٍ تداعب تراب الأرض، وتضحك كعادتها بصوت عالٍ، لأنّ المارّة يبتسمون لها، تزداد ابتهاجاً وكأنّ الجميع يعرف ما بها، يشجّعها أن تسأل أحدهم: هل رأيته؟ فيغمز لها مشيراً أن نعم، ويحرّك إبهامه إلى الخلف.

كانت الشوارع ترحّب بها والأشجار الملتفّة حول باب كليّة الآداب تلبس ثوبها الخريفيّ، تتساقط أوراقها، لم تكن تدرك أنّها فعل الطبيعة وحسب، بل كانت تؤكّد لنفسها أنّها تزفّها إلى الفرح كعادة أهل الشام بنثر الورود على عروس المساء. أيّ فرح هذا الذي يغمر ثناياها، وقد وزّعته هنا وهناك على العابرين! لم تكن أصوات أبواق السيّارات هذه المرّة تزعجها، كانت تكمل مشهدها الذي ترجوه. تلتفت حولها، ثمّ تعود من جديد لتضحك من توجّسها، تلحظه يمرّ بين عمودي المدخل، تختفي خلف الشجرة، تناديه: «حبيبي عماد أنا منى أحبّك». يضحك من حولها الجميع. تقول له: «حتّى لا تهرب منّي كلّهم شهود عليك».

ينطلقان بلا هدىً يمشيان، حتّى يدركا حديقة العشّاق، تحاول أن تنتزع عن روّادها ألقابهم لتتقلّد لقب أميرة العشّاق، لم يكن أحد منهم ينزعج لدخول شخص جديد إلى مساحاتهم، وتكاد الصداقات تعقد بينهم إلّا قليلاً. انزوت عن الجميع لا خوفاً بل محاولة أن تستأثر بحبيب وجدت فيه كلّ ما يغري أنوثتها ويحرّر رغباتها، وكثيراً ما كانت تخشى أن

يقارَن جمالها بجماله، فهو يتفوّق عليها حسناً وألقاً، يفرحها أن ينظر إليه مَن حوله كأيقونة للجمال، لكنّها تريده أيقونتها الخاصّة التي تبحث في أسرارها وتغوص في أعماق حزنها غير المفهوم. لم تعرف كيف يمكن لشابّ بهذا الحسن والعلم أن يغرق بوجومه.

تسأله أن يرافقها بسيّارتها، ثمّ تلدغه بعباراته: «أنا لا أركب سيّارة امرأة». وتعود لتهمس في أذنه شيئاً يستثيره ضحكاً، يردّ عليها بالموافقة، ثمّ تطمئنّ بأنّ رطوبة العشب الأخضر لن تعبث بثيابهما. تتخذ مكاناً تتّكئ فيه الى جذع الشجرة، تدعوه للجلوس، يضحك، يسألها: «ألا تخشين أن يراك أحد من أهلك..؟» تضحك وهي تقول له: «أنت أهلي.. فهل يزعجك افتراشي الأرض يا سيدي..؟».

- «اجلس». تهرب منها الكلمة كأنّها أمر عسكريّ، فتضحك تقول له: «هي العادة يا سيدي ليس إلّا..». يقترب منها، تمسك بيده، تكرّر طلبها: اجلس..

همس: «هناك شيء ما على زاوية فمك». يمدّ يده يمسح شفاهها، ترتعش منه ابتسامة يواريها، ثمّ يغادرها خطوة إلى الوراء، يدير وجهه عنها، ثمّ يعود ليأخذ مكانه المقابل لها، تسأله: أما زلت تخشاني..؟!

يرحل هو إلى ليلته الأولى معها، وصراخها يضجّ في رأسه جواباً عن سؤاله: أتقبلين بي زوجاً؟ فتهزّ برأسها: نعم. ثمّ تضحك، تصرخ: نعم. أنا منى أقول نعم. كيف لم يدرك عندها مَن تكون هذه المرأة. ما هو هذا الخيط الذي يجمعه بها، أحقّاً هو رجلها الأوّل أم أنّه العابر الجديد لمدلّلة لم تعرف أبداً معنى الحرمان.

تقاطعه بنظرات تبحث فيها عن أمسها وهي تجمع خصلات شعرها لتعيدها حيث قال لها إنّ من هنا انطلقت بداية الأنوثة وإليها الموئل الأخير. تلك التسريحة الجانبيّة التي تجعل من شعرها ستراً لمفرق صدرها.

شـيء مـا يـدعوه للصـمت، تقـترب منـه، تضـع يـداً بـين ركبتيهـا، والأخرى تتركها ليتّكئ بها وجهه: من أنت..؟ لماذا تغتابني في صمتك..؟ أجمعتنـا أسـابيع وحسـب أم هـي سنوات دون أن نـدري..؟ أكنـت تـرمقني استياءً أم إعجاباً..؟

تنـزلق يـدها فيمسـك بها يلثمهـا، بينمـا يـدها الأخـرى تعـيش غيبوبـة الحلم. يهمس: «لو لم تكوني أنت..». يتنفّسها عميقاً.. تصبح بلا وزن ترتمي بين استنكاره لشخصـها واستغراقها بحلمهـا. يقـف مجفـلاً. تتهـاوى يـداها علـى قدميـه تـزرع في الأجـواء سـؤالها الخجـول، تتحسّـس ملابسـها وتنهض. تعود لسخريتها: «رائحة عطري تهزّك؟ تعال إلى جانبي». تعود لجلستها الأولى، وتخلع عنها حرَج أنوثتها، وهي ترقب بطرفها أثرها عليه، يبتلع نشوته المبتورة، ويلثم بقايا أحمر شفاهها..

أرادت أن تعرف سرّ كراهيّته لوالدها، لكلّ ما يتعلّق به، حتّى تلك الآلة التي تستخدمها للتنقّل، تشعر بعمق رفضه لها. أهو الصراع الطبقيّ الذي يجعله حاقداً على كلّ انعكاساته في حياتها..؟ لماذا يرفض أن تمدّ له يد العون إذا كان يمكن تجاوز الفقر الذي يرتديه سيكون كلّ شيء على ما يرام..

كان شبح رحيله عنها يُرعبها، رغم أنّ الأيام التي جمعتها به ليست كثيرة، لكنّها كانت كفيلة بما لمسته منه من حبٍّ لها بكلّ تفاصيلها، لقد عرف كيف يجعلها أنثى بين يديه تتلوّى حنيناً وعشقاً، وتجزم أنّه حفظ تقاسيمها كما لا تعرف هي كيف تكون هذه التقاسيم، لم يترك فيها خلية إلّا وجعلها تنطق رغبة به، التفتت إليه أحقّاً تكرهه..؟

لم يشأ أن يثقل سمعها بإجابة مباشرة، قال لها أنا أكره كلّ برجوازيّي السلطة، ببساطة يا حبيبتي نحن نجوع، نقهر، نهزم في الحروب، لأنّ حكم الطوارئ الذي اخترعه والدك وأمثاله، وهذا الصراع الطبقيّ الذي توجعين

رأسك به، من المفروض ألا يكون بيني وبينك يا حفيدة الفلّاح الكادح، وبالصدفة ابنة رجل الأمن الذي لا مثيل له في الكون الثري التاجر الصناعي الذي غادر ضيعته منذ عشرين عاماً حافياً لا سقف يأويه، ولأنّ ضرورات القائد المغوار تستدعي عشرين جهاز أمن، كلّ واحد منهم شكّل دولته الخاصّة، كان نصيب والدك أيضاً أن يكون الحاكم بأمر الله، ينهب ما يشاء، ويكتب الحياة لمن يشاء..

في الحقيقة لا يوجد ما يجمعني بوالدك لأكرهه كشخص إلّا خيرات بلد تنهب، وكرامة مواطن تستباح، ومسؤوليّتي أمام مجتمعي أن أقول الحقيقة، أن أنزع الغمامة عن أعينهم، إلى أن نزعوا بعض لحمي الذي سألتني بالأمس عنه. سيبقى عام 1984 في ذاكرتي ما حييت، صحيح أنّه وسمني بالجرح الذي أزعجك النظر الى أثره والذي لن يُمحى أبداً، لكنّه أيضاً علّمني الكثير، ولعلّ صمتي أحسنه. أنا متأكّد أن لا ذنب لك بكلّ ما حدّثتك به، لكنّك ابنته وأنا أراه بيننا حتّى في لحظاتنا هذه.

- لكنّك لن تهجرني لهذا السبب. أنت قلت هذا، أنت تحبّني، تغار عليّ، رأيت ذلك في عينيك مراراً. قل إنّك ستكون معي دائماً وأنا أتركه وأتركهم جميعاً لأجلك..

صراعه الداخليّ كان يشتدّ لحظة إثر أخرى، ترى ماذا لو علم والدها مَن أكون، أتراه يرحمني..؟! لو علم بما بيننا وكيف سال دمها على يدي حبّاً وطواعية..! كيف دارت بنا غرفتي المظلمة التي هي أشبه بزنزانتي الفرديّة، وصارت عندها أحلى من سريرها الوثير وخزائنها المرتّبة ومراياها المصقولة.. ماذا لو اكتشف أنّ حصيرتي التي أفترشها أغلى عندها من قصره المنيع وسجّاده الإيرانيّ البديع.!

أتراه يسمح..؟! كيف يخطر لي أنّه سيسمح..! سيشعل الأرض من تحتي وسيتركني ألعق من جديد إسفلت الشوارع.. لماذا لم تقل لي

حقيقتها من قبل..؟ كيف لم أدرك مَن تكون..؟ أتراني خدعت نفسي عندما توهّمتها أخرى..؟ حسناء مِغناج ابنة الثراء غير السلطويّ.. يا ويحي أليست البرجوازية غير السلطوية أشدّ عداء لنا من السلطة نفسها..؟! مَن تراه يدافع عنّي من الرفاق لو عرف سرّ العلاقة معها..؟ لا أحد لا أحد.. لقد وقعت في المحظور مع كلّ الأطراف حتّى معها..

تسأله: كلّها أيام وستبدأ عطلة الامتحان، ما رأيك برحلة وداع في سيّارتي؟ عفواً، سيارة مؤسسة الأمن التي ترفض ركوبها..

يضحك ساخراً: هي سيّارات الدولة ومال الشعب – للتصحيح – وعليك ألا تتجاهلي أبداً هذه الحقيقة..

تردّ بسخريتها المعهودة: «وأنا ابنة الشعب وأركب سياراته».

قبل أن تطلق قهقهتها الصاخبة تنثر سيارة فارهة غبار الحديقة عليهما، وتقف بوجههما تصرخ بسائقها: «هِيْه أنْتْ ألا ترانا..؟!». يتجنب الشاب النظر نحوها مباشرة ويقول: «اعذريني يا سنيورة لا لم أرَكما..». يذهب باتّجاه آخر بينما يتركها تأكل كلماتها الغاضبة وتتوعّده بعقاب عسير، يمسك عماد بيدها، يشدّها للرحيل، تحاول أن تتحرّر من ضعفه قبل أن تسحب يدها منه تقول: «ألا تفهم..! لقد أهاننا..!».

يردّ عليها بمرارة وقهر: لقد أهان تلك الفتاة المسكينة الجالسة تحت شجرة مع حبيب فقير، هو يا أنستي لو راقب خروجنا من هنا وشاهد رقم سيّارتك المرعب لعرف أيّ مستقرّ حزين اختاره لنفسه، لكنّ سوء طالعه أنّه لم يقرأ قسمات وجهك الغاضبة بدقّة ليعرف اسمك الثلاثيّ المَهيب، لو أنّه حاول أن يفتح كشكول الأحلام هذا الذي تحملين، لعرف أنّ مصائر نصف شباب الجامعة بين يديك، وتصوّر حجم الكارثة التي أوقع نفسه بها..

- عماد ما هذا..؟ أكلّ هذا الحقد بقلبك عليّ..؟ لماذا..؟ هذه وساطات أردت بها الخير للناس..!
- الآن بعد أن سجّلت رقم هذه السيّارة هل هي ضمن أفعال الخير أيضاً..؟!

يمرّ الشاب من جديد آخذاً طريقه خلف مِقود سيّارته، بعد أن يرمقهما بنظرة وجدت فيها سبباً لتسأل عماد: «ألاّ تعتقد أنّه يستحقّ أن يكون في ضيافة والدي، ولو لساعة ليتعلّم الأدب..؟».

بصمتٍ ينسحب عماد من المكان فأيّ إجابة يمكنها أن تهدم ما بداخله من حواجز، مع التعاطي معها كابنة مسؤول، عاشره سنة كاملة عرف عنه ما يجهله هو عن نفسه. ورسم له طريقاً غير مسموح فيه الزلل، لحقت به تريد إجابة واضحة يفسّر بها قبوله الإهانة دون ردّ. لم يشأ البوح لها بأكثر ممّا عرفته عنه وقبلت به طالباً في كلّية الطبّ. لم يشأ أن يخبرها أنّ صوته مكتوم وأنّ أيّ شخص من هؤلاء يستطيع أن يضع نهاية لحرّيّته المشروطة، أن يلغي حقّه في التعليم، وفي الحياة أيضاً.

تصرخ وتصرخ، تطالبه بأن يتصرّف لأنّ الموقف يحتاج لرجلٍ. يسخر من هذا الموقف الذي يحتاج لرجلٍ، يلتفت إليها ويضحك بينما هي تصرخ: «أرجوك عماد لا بدّ أن تُسمعه كلمة واحدة ولو أساء سأتّصل بوالدي».

ينتفض بوجهها: أنت أرجوك أن نذهب وننهي الموقف.

- لا لن أذهب.. عليه أن يعرف مَن نحن. إنّه يهيننا.

يبتلع وجعه: مَن نحن..!

لو كانت تعرف كيف أنّني لم أستطع يوماً أن أحمي نفسي أو تدرك معنى أن تكون أصلاً بلا صوت، لو عرفت كيف هي الإهانة وكيف يكون الذلّ، ويصرخ بلا صوت: أرجوك ارحميني.

تمسك بيده: انظر إليه هو يتعقّبنا، أرجوك، كلمة واحدة. أريد أن أشعر برجولتك تخترق عنجهيّته وتمزّق هذا القناع الذي يرتديه.

ينظر إليها، شيء ما بداخله يصحو مع كلمة الرجولة، يستذكر فتاة صغيرة أيضاً كانت تستصرخ رجولته في زقاقٍ ضيّقٍ لا يكاد يتّسع لمرور سيارة عندما كان صاحبها يجبر تلك الفتاة على الصعود معه، وهي تتمسّك بالأرض ملاذاً، وتشقّ عباب الحي مستنجدة، وقد صمتت الآذان وراء النوافذ المغلقة والأبواب الموصدة، ثيابه المموهة وعضلاته المفتولة ورقم لوحة سيارته تنذرك بالموت لو اكتشفت رجولتك طريقها إلى التعبير عنها برفض الظلم واغاثة طفلة تسحق تحت أجساد الشهوة، وباسم السلطة التي يجب أن تحمينا بدلاً من اغتصاب نسائنا على قارعة الطريق،تساءل عماد: هل يستطيع أن يتجاهل رجولته للمرّة الثانية أمام استغاثة امرأة يحبّها..؟!

التفت إلى الخلف، مدفوعاً برغبة منى لينتقم لكرامتها المهدورة، حسب زعمها، شعر أنّ المسافة الى سيّارة الشابّ آلاف الكيلومترات، مشى ومشى ومشى، وقف في مواجهته متسائلاً: ما الذي يجعل من هذا الشابّ قادراً على إهانته دون سبب؟ لكنّ نظرة واحدة إلى اللوحة السوداء في مقدّمة السيّارة كانت كفيلة بإجابة صامتة، ربّما إلى الأبد.

ركضت خلف السيّارة تناديه:

ماذا فعلت..؟

من أين جاء كلّ هؤلاء..؟

عماد.

انتظر.

لا تخفْ سأتّصل بوالدي يا إلهي ماذا فعلت به..!

توجّهت الى سيّارتها، كانت معالم الطريق إليها قد ضاعت.

هنا.. لا.. هناك، هذه هي أخذت مكانها في مقعدها، وهي تحدّث نفسها:

«ماذا فعلت به من عساهم يكونون يا إلهي..!».

فصلتها عن لحظة الوصول إلى مكتب والدها عشرات من الأسئلة التائهة وضعتها جميعها أمام أبيها الصامت والضاحك.

- اهدئي هم شباب وقد يكون بينهم معرفة اذهبي الى البيت الآن.
- «لا تنسَ بابا لابدّ أن أعرف أين ذهب. أكيد ستعود به مساء».
- غادرته، وهو يتنفّس الصعداء.

ومرّت مساءات كثيرة ملّ سؤالها وملّت إجابته.

ثورةُ جسد

تبحث بين الوجوه تسألهم بصمت ويجيبها صمتها، لم يأتِ...

في ذاكرتها رقم واحد هو رقم سيّارتهم، تدخل إلى صفّه تقرأ اسمه على المقعد، تنادي: عماد.. تجهش بالبكاء، وتمضي. مرّت أسابيع الامتحان بين السؤال والتمنّي.

لم تدرك والدتها حجم الحزن الكبير الذي جثم فجأة على روح ابنتها، غاب صدى ضحكتها من المنزل الذي كثيراً ما زرعتها في كلّ أرجائه وهي تدخل حديقته، تقطف وروداً كثيرة. تلقي بنفسها في حضن والدتها وتسألها في تفاصيل يومها.

على أريكة احتلّت صدر بهو المنزل الكبير، كانت تنسج حكايات الأمّ والفتاة الصغيرة التي كبرت ولا يزال احتضانها شرطاً أساسيّاً من شروط المساء المنزليّ.

ألقت برأسها على صدر والدتها؛ المرأة الأربعينيّة الحسناء المميّزة برائحة عطرها الفرنسيّ وملابسها الحريريّة، وتصابيها الذي لم يرضخ أبداً لدخولها العقد الخامس، لا شكلاً ولا قلباً. كانت دائماً ما تبحث بعينيها عن هذا السرّ الأنثويّ الذي تلمحه، ويؤلمها غيابها الذي شعرت به خلال الأسابيع هذه كما لم تشعر به من قبل.

سألتها: لماذا تغيبين كثيراً عنّي..؟ ثم كظمت بعض ما عرفته عن ذلك العبق الذي كانت أنفاسها تنتشي به إثر لقاءاتها بعماد، وكيف تختلط رائحة جسده برائحة عطرها، كادت تقول بعلوّ صوتها: هذه

الرائحة أعرفها. لولا خجلها من أن تدرك أمّها أنّ بعض سرّها قد تسرّب إلى نفس ابنتها، لكن دفعها الأمر لمزيد من البكاء.

عصرتها أمّها بين يديها، مواسية تقول لها: ما زال الوقت مبكراً على الحرمان يا صغيرتي. فردّت عليها: لكنّه ذهب ولم يعدْ. تركني دون أن يعرف حجم ما زرعه داخل نفسي. لو كنت رأيته يا أمّي لعرفت أنّني عشقت رجلاً يختلف عن كلّ هؤلاء الذين نراهم ونتوهّم أنّهم رجال أصلاً، لكنّه رحل دون أن يقول لي كلمة. تردّ عليها أمّها: يابنتي هؤلاء الرجال كما يأتون يذهبون، لا عليك، بدّدي حزنك، فالحياة أمامك جميلة وكلّ مَن حولك راغب بك، وكلّ ما عليك هو أن تختاري ما يناسبك منهم. ابدئي دوماً من جديد وستجدين ما يسعدك.

دار بها المنزل الفاره، غرقت باللوحة الجداريّة الكبيرة، رأت في الأجساد العارية ما يشبه كثيرين ممّن عرفتهم، لكنّه لم يكن من بينهم، كان وجه الملاك الذي ينظرون إليه وحده يشبهه. كم تمنّت لو أنّ أنطونيو كورجيو قد رآه لأبدع صورة حقيقيّة لرجل عارٍ بوجهٍ ملائكيٍّ. ضحكت في سرّها، وقالت لنفسها: ترى هل كنت أستطيع شراء تلك اللوحة..؟! آهٍ يا والدي.. كنت ستشتريها لي حتماً، كما فعلت من أجل والدتي.. تُرى مَن منهم يشبه أبي..؟

علت ضحكتها، لاشكّ أنّ عصر النهضة لم ينظر أبداً إلى الرجال قصيري القامة ولم يكن كورجيو ليلتفت إلى والدي لأيّ سبب. لا أعرف كيف يمكن لامرأة بجمال أمّي أن تكون زوجة له.. صحيح أنّ وجهه لم يكن دميماً، وأنّ ثقافته اللافتة تبهر مَن حوله، وشهاداته التي تتراكم فوق الجدار المقابل لنا تكاد تجبر الجدار على أن يشتكي العلم، لكنّه بيديه الصغيرتين وساقيه القصيرتين أيضاً، أشبه بمهرّج يتأرجح فوق بالون كبير.

يا إلهي لو علم والدي كيف أنظر إليه لكنت نزيلة أحد أقبيته.

تـداعب أمّهـا خصـلات شـعرها الطويـل: لابـدّ أن تجـدّدي نفسـك يابنتي، تغيير الشكل يتسرّب إلى داخلنا نحن النساء كما السحر، تعالي لنذهب في إجازة إلى باريس، هناك متّسع لأن يقول جمالها في أنفسنا ما لن تستطيعه دمشق.

- لكـن يـا أمّـي لابـدّ أن تعـرفي أنّـني الآن غـير مـا تتـوقّعين أن أكون.

لمحـت والـدتها ظـلال صـفرة تتسـرّب إلى أحـداقها، وهـزال يرتسـم واضحاً على محيط عنقها، مرّرت أطراف أصابعها على وجهها، ثمّ على نحرها قائلة لها: أتشكين من شيء..؟

هزّت رأسها: الدوار يمنعني عن الطعام.

- منذ متى أيّتها الصغيرة العابقة فرحاً وضجيجاً..؟

تجهد في رسم ابتسامة عابرة: منذ أن رحل.

تعيد والدتها تصحيح جلستها، لتصبح في مواجهتها مباشرة، تضع يدها على أسفل بطنها: أنت....؟!

تنهمر الدموع من عينيها، تقول: كان يجب أن أكون...

تنتفض أمها غاضبة ويل لك كيف فعلت هذا تلطمها بكلتا يديها على وجهها وتصرخ حمقاء حمقاء لماذا لماذا ألا تعلمين حجم ما خسرت.

تنهار مني باكية أعلم وأعرف –وينطلق صراخها كعويل مجروح–

- لكنّني أحببته. شيء ما كان يشدّني إليه. أردته أن يكون لي، أن يمزّق كلّ حواجزي، ويعيد من جديد صياغة جسدي. لم أشأ أن يكون عابراً كالآخرين. كان حذره يخيفني فأشدّه إليّ أكثر. أردته أن يمتلك جسدي قبل أن تمتدّ أفكاره لتحرّر غشاوة الفكر التي كان يحدّثني عنها دائماً بين طبقة الأثرياء الغبيّة. ما كنت لأستطيع أن أبقيه بعيداً في جزء بينما يتغلغل

هو في كلّ أجزائيّ. هل تعرفين يا أمّي، لقد كان نزار قبّاني مقصّراً حين ادّعى ثورة النهد، لأنّني اكتشفت أنّني كلّي ثائرة أبحث عنه ليكون منقذي من نفسي وعبثي.. آهٍ يا نزار.. لقد أبدعت في جزء وتركت له أن يبدع في كلّ أجزائي. وكلّ ثورة ملطّخة بالدماء. هكذا كنت أصرخ به رغم سلميّته التي أبداها أمامي. ثورتي كانت تحتاج لتلك القطرات النازفة لتؤكّد صدق انتمائي له.

كانت التفاصيل التي ترويها منى تقود والدتها إلى سؤال عن نفسها، عن علاقتها بزوجها، هذا الرجل المسؤول الذي تتطلع إليه النساء كمعبر للسلطة والمال دون أن ينظروا إلى ضآلة حجمه وقباحة طلته، أتراه يحفظ شيئاً عن جسدها أو يدرك تفاصيل اختلافها مع أخريات كثيرات يتشاركنه معها حتّى يغيب عن ذاكرته في أحايين كثيرة اسمها.

لم تكن تلك اللحظات إلّا مجرّد توقيع على صكّ عبوديّتها المقرفة، التي تجمّلها بعقودها الماسيّة ورحلاتها المكّوكيّة إلى عواصم العالم بمرافقين من جنسيّات مختلفة، لكنّها تذكر دائماً أنّ ذلك الفرنسيّ كان له طعمه الخاصّ على جسدها، ومقدرته الساحرة على بثّ النشوة فيها وإسكارها.

- يابنتي المسكينة.. سنذهب في رحلتنا ثمّ نعود وكأنّ شيئاً لم يكن. هيّا لنغلق حقائبنا معلنتين انتهاء يومٍ حزين.

دخل والدها محوطاً بجمهرة من المرافقين، ألقوا بما لديهم على الطاولة المزخرفة أرجلها بتماثيل فينيقيّة، وخلفها تلك المرآة التي كست جداراً ضخماً، تتّكئ عليها منحوتة لامرأة سوداء طويلة، لاشكّ أنّ والدها يحبّ النساء الطويلات، فكلّ امرأة في الدار تشبه رغبته، من الخادمات إلى اللوحات المتناثرة حتّى إلى تماثيل الحديقة، لعلّها عقدة كامنة في نفسه.

تقدّم من والدتها وبيده علبة مخمليّة حمراء بلون الدم الذي شاهدته على شرشف لم يعرف يوماً رائحة المنظّفات، ولا تشرّب ماء الغسيل...

يا الله يا عماد كيف تنام على هذه القذارة..؟ ما هذه الكتب المتناثرة والبقع التي تغطّي المكان..؟ فيقول لها: هذه هي الحياة يا حبيبتي كما لم تعرفيها من قبل.

كانت أسرّة الفيلات والفنادق تعبق في أنفها على الدوام، لكنّ رائحة جسدٍ بشريّ كجسد عماد تدخل في حناياها، وتسكن في ثنايا ذاكرتها كيوم ميلادها..

- ما رأيك يا أمّ حيدر بهذا العقد الذي يليق بعنق مصقول كالزجاج..؟

تضحك والدتي، تنسى كلّ ما أخبرتها به عن مأساتي، تأخذه بيدها، تترك له العلبة الفارغة وتمشي إلى مرآتها.

- جميل ورائع لكنّه يحتاج إلى ثوبٍ أخّاذٍ أيضاً، ولهذا ما رأيك أن نذهب أنا ومنى لنشتري هذا الثوب..؟

يضحك: أهذا استئذان بالخروج..؟!

- بل بالسفر يا عزيزي إلى باريس..

حيدر الأكول قادمٌ يتلوّى في مشيته، ويشتم كعادته الخدم لأنّهم يضعون التحف في طريقه. جسده الممتلئ يعيقه غالباً في ابتداع طريقته في الدلع، لذلك يكتفي بعناق والده الذي يقاربه طولاً، بينما يتطاول ليطبع قبلة على جبين والدته. يقول: ماذا سنأكل..؟ لم أشمّ رائحة لطعامٍ في المطبخ. ثمّ يتنبّه لحزم ورقيّة مكدّسة على الطاولة. آهٍ هذا هو طعامنا اليوم. ينادي الخادمة بنزق لتعدّه على الطاولة، بينما والدته لا تزال مستغرقة بتفحّص عقدها الماسّيّ الجديد، وتسأل: وماذا عن منى ألاّ تستحقّ عقداً هي الأخرى..؟!

- لا تـأبهي لـذلك، فغـداً سـيزورني صـديق ولا أشـكّ أبـداً أنّ مـا يطلبه منّي يساوي أكثر من عقد ماسّيّ.

يطلق جملته ويملأ المكان بقهقهته المدوّية.

قطبة سحريّة

في ذلك البلد الذي تألفه منى جيّداً كأمّها وكثيرات من بنات المسؤولين أشباهها، كانت الأسواق ملاذها لتحارب وحدتها لساعات طويلة، حيث تغيب الأمّ لتعود نضرة فرحة تسألها عن قرارها بشأن مراجعة الطبيب. فتقول لها: أريده أن يبقى بداخلي.. أن تنبعث روحه فيّ.

– يابنتي...؟!

– أرجوكِ كلّ ما دون ذلك أفعله.

لم يكن الأمر صعباً على عائلة تستطيع أن تشتري كلّ شيء، أن تعيد صياغة الحقائق كما تشتهي.

قدّمت الأمّ التفاصيل المطلوبة للطبيب الذي أكّد لها بضرورة أن يكون زواجها خلال أيّام قليلة قادمة.

ضحكت الأمّ وقالت: سنأخذ معنا ثوب الزفاف.. سيكون كلّ شيء كما نشتهي.

بدأت بتحضير تفاصيل الاحتفال الكبير الذي سيحضره رجالات الدولة وعائلاتهم دون أن يساورها أدنى شكّ بأنّ العريس قد لا يكون موجوداً أصلاً، أو أنّه سيكتشف هذه الفعلة النكراء في مجتمع «ضيعتهم» الجبليّة..

– لكن مَن العريس..؟ سألت منى، ثمّ لاذت بالصمت، لتكمل في قرارتها: ربّما يكون هو فلا شكّ أنّ والدي قد وجده بعد أن روت أمّي له تفاصيل حكايتي معه. لكن ماذا سأقول له فيما لو اكتشف كيف رمّمت أمّي جرحه الغائر بي..! ليته

يكون هو فأحظى بتلك السعادة والمتعة والجنون من جديد.
يعلّمني أصول خلع الملابس على طريقته ويشرح لي علوم
الطبّ الحديث في خلايا جسدي، ويثبت لي أنّ أصل الحبّ
همسة امرأة وأنّ بداية التاريخ ونهايته على يد امرأة، شارحاً لي
ما هو ذلك الخيط السرّيّ الذي يمتدّ بين أسفل ظهري إلى
باطن قدمي معلناً نشوة امرأة.

عند مدرج الطائرة كانت السيّارة السوداء التي يسمّيها العامّة «الشبح» تنتظرهما، والسائق الشابّ ببدلته السوداء يرنو بنظره إلى خطوات عايدة وابنتها. فتح الباب اليساريّ الخلفيّ للسيّارة لتركب، بينما توجّهت منى إلى الباب الآخر، حيث تسمّر شابّ طويل متين البنية، ممسكاً بقبضة الباب، قائلاً لها: الحمدلله على سلامتك يا آنسة.. كان السائق يوزّع نظره بين الأمّ والطريق، وكانت منى تنبّهه أكثر من مرّة إلى السيّارات التي تتجاوزه. وبهدوء مثير لاستيائها قال لها: أراها يا آنستي.. لا تخشي شيئاً.. ستصلين بأمان إلى البيت حيث الضيوف ينتظرونك.

استدارت إلى أمّها التي ضحكت رابتة على يدها، ثمّ أمسكت خنصر يدها اليسرى لتقول: إنّه خطيبك ينتظر عروسه القادمة لتكون ملكته الليلة.

شاردة تحدّث نفسها: عماد.. هل يعقل أن يكون هو..!

لكنّ الإجابة وصلتها: إنّه أمجد؛ ابن صديق والدك اللواء حاتم وشريكه في العمل الخاصّ.

- شابّ لطيف أعرفه يا أمّي. هو صديق لابن سيدنا الحاكم وتطلق قهقهة ساخرة ثم تقول كثيراً ما أراه يقف سانداً له خاصرته اليمنى.

قالت منى ذلك وأشاحت بوجهها نحو الخارج. الأشجار العارية تذكّرها به، وتلك الحرائق على جذعها كلحمه المسلوخ أسفل ظهره. لولا

تلك الندبة البشريّة لأدركت أنّه صورة ملاك على الأرض، لم يتسنّ لأحد من قبلها أن رأى ملاكاً ينتفض حبّاً.

كانت تعرّجات الطريق تزعجها، وما إن تجاوزت الغوطة لتدخل معبر دمشق باتّجاه وسط المدينة، حتّى بدأت العشوائيّات تحتلّ مكانها في لوحة قبيحة لا تشبه مدخل أيّ عاصمة في العالم. أبنية يتهاوى بعضها على بعض، شُيِّدت على عجلٍ من حصىً وصفيح وبعض طينٍ، وما يزيد المنظر بؤساً مناشير الغسيل الملوّن كأعلام الاحتفالات الأولمبيّة تنتشر فوق الأسطح ومن فتحات الشبابيك، وكذلك الأطفال الحفاة الذين لا يرتدون إلّا ما يستر عوراتهم، وأحياناً يتركونها للعلن شاهداً على ذكورتهم أو أنوثتهم. فتاة بثياب بالية تركض باتّجاه السيّارة العابرة بأقصى سرعة، تصرخ منى محذّرة السائق الذي يتوقّف. ترتمي الفتاة على نافذتها السوداء، تفتح منى الزجاج برويّة، تتفاجأ بوجه ذي قسمات أنثويّة خارقة، يحيط به شال مهلهَل أسود يمنح الوجه بياضاً على بياض، وملاحة نادرة، بينما أخذت الحمرة الطبيعيّة مكانها على أعلى الوجنتين. تمدّ يدها بورقة ممهورة بختم طبيب تقول: الله يخلّيلك شبابك، هاي راشيتة لوالدتي المريضة، ثمنها يساوي ثمن تلك الجدران التي نأوي إليها. وأشارت إلى نافذة قريبة بين عشرات من مثيلاتها. وأضافت متوسّلة: أرجوك أن تساعديني، الله يعطيك ما تتمنّين.

مدّت منى يدها إلى حقيبتها، أخرجت ما لديها من نقود سوريّة، لم تكن كثيرة لكنّها كانت كافية لتتلقّفها الفتاة بفرحة غامرة، بينما كانت منى تفكّر بما تتمنّاه، وهو أن يستبدل الله أمجد بعماد لتغرق نشوة ولذّة من جديد تحت لسانه الملتهب إلى أن تغيب عن وعيها.

أغلقت نافذتها بينما والدتها تربت على كتفها قائلة لها: حسناً فعلت فنحن نحتاج إلى هذه الدعوات أحياناً..

عند المدخل المزيّن بورود كثيرة، كان حيدر يقف منتظراً هداياه التي حدّثته والدته عنها عبر الهاتف، وإلى جانبه فتاته تالا ابنة رجل الأعمال المعروف بوجهها النحيل وجسمها الضئيل الذي تزداد ضآلته كلّما وقفت بالقرب منه.

كانت تالا تدرك أنّ ما يجمعها بحيدر هو رغبة شقيقها ليكون شريكاً له في المستقبل، الذي يكتب فصوله بحرفيّة عالية والده الذي أبعده عن حياة الوظيفة ليقذف به في عالم الأعمال، بعد أن هيّأ له ما يحتاجه من بريستيج الشهادات العليا الممهورة بختم السوفييت والمصدّقة رسميّاً من جامعة دمشق؛ أعرق جامعات العالم. لولا هذه الطموحات الاقتصاديّة، لكان حيدر الآن يصول ويجول في قاعات الدرس، مالئاً مساحات المدرّج بسخافاته وادّعاءاته الكاذبة حول سنوات دراسته الوهميّة.

ربّما هو من حسن حظّ طلبة الهندسة في جامعة دمشق أنّ أطماع والده كانت اقتصاديّة، ولم تكن علميّة، كحال صديقه محسن الذي أُجْبِر على أن يقف قبالة مِئة شابٍّ في مقتبل العمر، يناقشهم في الجراحة التي لا يعرف عنها أكثر ممّا يعرفه أيّ عابر وليدٍ في مشفى عامّ. إذ كان يتحتّم على كلّ أساتذة كلّيّة الطبّ وطلبتها أن يعملوا بجهدٍ ملحوظ، ليقنعوه أنّه أستاذ في الجامعة، وأنّ كلّ أسباب معاناته تكمن في أنّ ما تلقّاه من علوم متطوّرة جدّاً في رومانيا الشيوعيّة، تصعب ترجمتها بين ليلة وضحاها إلى دروس عمليّة للطلبة، لذلك كان هناك مَن يعدّ له مدوّنة محاضراته، ومن يدرّبه عليها من حيث الإلقاء إلى أن تمرّس جيّداً في عالم التدريس، وقد نسي بداياته كاملة.

أدركت منى سبب إصرار والدتها أن ترتدي فستاناً أبيض يظهر كلّ مفاتنها الجسديّة بدءاً من صدرها الممتلئ قليلاً، والذي كثيراً ما كان عماد يقول عنه: «إنّه ذات الصدر الذي تحدّث عنه الشعراء، فهو رمّانة في استدارته، ولؤلؤة في حلماته.. لو كنت يوم مولدك لسمّيتك ناهد كهذا النهد

الثائر عليّ ولي». ثمّ يضيق رداؤها ليظهر خصراً نحيلاً تعلن أردافها الممتلئة نهايته، تلك التي قال عنها: «مخطوطة المتنين غير مفاضة ريّا الروادف بضّة المتجرّد».

- هذا الشعر الذي لا أفهمه من أين تأتي به..؟!
- من الذبياني يا جاهلة اسألي والدك المثقّف عنه..

تالا التي كانت تنظر إلى منى لحظة نزولها من السيّارة، تشهق بإعجاب يميل إلى الحسد أكثر، رغم محاولات تملّقها لمنى وبثّها أشواقاً غير موجودة، ولن تكون في قادم الأيّام.

تشقّ طريقها عبر أكاليل الزهر الموزّعة على جانبي المدخل، وتلقي بخدّها إلى كلّ راغب بالتعبير عن محبّته لها وفرحه بوصولها سالمة مشعّة، وقد ألقت بأعباء امتحاناتها في صخب باريس التي لا تنام..

- الجميلة الحسناء فاتنتي.

أمسك بيدها الممدودة إليه، ليطبع عليها قبلة الرضوخ الأولى لها ولعائلتها، مقلّداً النبلاء الذين يسمع عنهم أو يشاهدهم في الأفلام. تلقف يدها الناعمة ومشى إلى جانبها عابراً ذكرياتها بين تلك المساحات التي اكتظّت مؤخّراً بقطع أثريّة ومنحوتات فنّيّة من كلّ بقاع الدنيا، إلى أن التقت عيناها بعيني والدها اللتين تبدوان أشبه ببحر يصعب تحديد مجراه..

- ابنتي الفاتنة..

تسمعه يناديها، تمسك بذراعيه وهي تكاد تسأله إذا ما كان هنالك من خبر عنه. يقول لها: هذا عمّك أبو أمجد سلّمي عليه.

بالقرب منه كانت امرأة أشبه بقطّة شرسة ترتدي كلّ ما وصلت إليه يدها من خزائنها من ألبسة وحليٍّ. كادت منى تطلق العنان لضحكتها الصاخبة، لولا أنّ والدها لحظ انبهارها فشدّ على ذراعها هامساً: هي خزانة متحرّكة لكن لابدّ من المجاملة..

كان والدها يتمتم بروح المداعبة، وقد اشتهرت عنه ثقافته الواسعة حتّى لتكاد شهرته ترسم له صورة مغايرة لواقعه الجسدي. كثيراً ما كانت تسمع همسات بعض الطالبات عن علاقاته الكثيرة وأدائه المتميّز خلالها، وهو الأمر الذي كان يبرّر حزن والدها بداية، ثمّ غيابها الكثير عن المنزل تحت حجج واهية لاحقاً..

مدّت يدها مصافحة، وسرعان ما فتحت الوالدة حقيبتها لتخرج منها كيساً وضعت داخله أغلى المجوهرات من عند الحداد المحل الأكثر شهرة وغلاء في دمشق. مدّ أمجد يده إلى داخل الكيس، أخرج منه علبة فاخرة كثيراً ما شاهدت منى مثيلاتها في أدراج والدتها، كان في العلبة عقد مرصّع بأجمل ما شاهدت من أحجار ملوّنة تذهب بالأبصار، وخاتم خطبة لطالما حلمت به أن يقدّمه لها عماد حتّى ولو كان فضّة، وليس كما هو الحال هنا، وقد تزيّن بأكثر من قيراطين من الألماس..

رفعت الأنخاب ووحدها كانت تشرب نخب عماد الغائب الحاضر فيها دائماً، شعرت به يأخذها من يدها، يحمل بيده الأخرى كأسها يمدّدها على أرض غرفته التي تتعثّر بها بذكرياتها، يرفع عنها وزر ثوبها الباريسيّ ويعلّمها كيف تشرب الأنخاب. ويضحك ثمّ يقول لها: الأنخاب يا مناي تُرتشف كالقهوة الساخنة.

ابتسمت لأمجد هذا المنقذ المغفّل، ثمّ وضعت كأسها على شفتيها معلنة بداية فصل جديد في حياتها.

كاد ثوبها الأبيض يفيض عليها جمالاً لولا أنّها شعرت بتغيّرات تعصف بجسدها، لكنّها أصرّت على أن تكون كما لم يعرفها الجميع من قبل. هي عروس الليلة سيكون قصرها عامراً بأقرانها من أولاد المسؤولين، أتراهم سيحضرون جميعاً وهي تنزل درجات السلم، شاهدتهم يتحلقون حوله كعبيد وجوار يبغون مرضاة سيدهم.

فهمت منى سبب ارتداء سارة أيضاً الثوب الأبيض، كم تمنّت لو أنّه لم يأتِ حتّى لا يسرق منها ليلتها.. أهذا التبرّج من الأخريات لأجلها أم لأجله..؟! ما إن وصلت مزفوفة بالأهازيج حتّى استداروا إليها مصفّقين، ثمّ وسّعوا «للزعيم» الطريق إليها، وهو يمسك بيد عريسها: «أسلمك رقبته». ضحك الجميع. فردّت عليه هامسة: «وكلّهم أسلموك رقابهم سابقاً، أو بالأحرى كلّهنّ». ضحك وقال: «لكنّه سبقني إليك».

تمتمت سرّاً: أيّها الماجن الأبله، وهي تمطره بنظرات لاهبة، كنت تصدّق أنّني أتطوّع لأكون مهرّجتك لساعة واحدة ألهث وراء نشوتك كالمعتوهة بينما تأكل الفتيات جسدهنّ بعد أن تغادرهنّ. كانت نظراتهنّ ترقب همساته، تقدّمت سارة نحوها، أخذت يده من يدها، فهمت منى سبب ارتدائها الثوب الأبيض، تعرف أنّه مريض بهوس البكارة، لذلك بذلت سارة كلّ جهدها ليعيش معها أمسية ناريّة على هدى ثوبها الأبيض الشفّاف الذي لا يكاد يغطّي إلّا مساحة من ثدييها وبعض أردافها.

لم يكن مبرّراً كلّ هذا الطول لفستانها الذي لا فائدة منه إلّا أن يؤكّد ببياضه إتقان ليلاس ومهاتا وراشا؛ خدم المنزل لعملية تنظيف رخامهم الإيطاليّ المستورد، ليرصف بهو منزلهم الذي يتّسع لنحو أربعمئة قطعة بقياس متر واحد، ويقابله على السقف مرايا فرنسيّة بنحو نصف مساحته، وقد وضع في منتصف البهو آنية خزفية حمراء تحاكي تلك القطعة الفنيّة المدهشة الموجودة في متحف الآثار الوطنيّ بأثينا، ورسم عليها امرأة تحمل بيدها مرآة، يقول والدي دائماً متباهياً بهذه اللوحة الفنّيّة إنّها من حضارة الإغريق، وهي تساوي ثروة بثمنها..

تقدّم الجميع يبارك لها هذا الزفاف المتسرّع غير المبرّر، لكن عمار الطالب أيضاً في كلّيّة الطبّ، الذي لمحها أكثر من مرّة في لحظات حميميّة

مع عماد الذي كانت تجمعه به قاعة الامتحان، وقد نبهها ذات مرة أن ابن الحاكم الذي ينعمون بخيره قادم الآن ولن يرضيه أن يراها مع هذا الشابّ الوضيع.

تتذكّر كيف غادرت قاعة الامتحان على عجل، فوجود عمار يعني وجود سيده ابن سيدنا جميعاً، فهو يمهّد له الطرقات ويلقي بمن لا يعجبه جانباً حتى لا تستاء عيون السيد وهو يدخل إلى قاعات الدراسة التي تكاد هي الأخرى تهتزّ خوفاً من هذا الجالس بين جدرانها، وفوق مقاعدها. أتراه أدرك حجم مأساة هؤلاء الطلبة الذين لم يكونوا قادرين على التململ أمامه من واقع حال دراستهم، وبخاصّة في ستاجات المشافي العامّة، حيث يتدرّبون بالناس البسطاء، ويحتكّون مع أفقر شرائح المجتمع، أولئك الفقراء الذين يلجؤون إلى هذه المسالخ البشريّة، بل يتوسّطون ليتذوّقوا الموت العام.

حكى لها حبيبها كثيراً عن وقائع مؤلمة كان أبطال حكاياتهم يموتون انتظاراً على أبواب العيادات الخارجيّة، وكانت تستهويها طريقته في الحديث عن النظافة العامّة ومفاهيمها في تلك المشافي، وكيف تتقاسم الصراصير الأسرّة مع المرضى، كان يضحك وهو يقول لها: أحياناً وأنا أرفع أغطية السرير لا يفاجئني أبداً أن يكون المريض قد التهمه جرذ جائع. حتّى الجرذان التي تتبختر في الممرّات كان يمكنها أن تسرد حكايات مؤلمة عن واقع الخدمات هناك.

الدكتور عمّار وهو يربت على كتفها رغم منبته الطبقيّ الفقير، وميزته الوحيدة أنّه صديق لابن سيدنا كما تحب وصفه ساخرة وابن ضيعته، قال لها: أحسنت. أنت الآن بمكانك المناسب والملائم.

كان حقدها عليه بادياً في عينيها لو أنّه أمعن النظر إليها، لكنّه أراد أن يلقي بكلماته ويغادر فوراً من باب تعريفها أصلاً بما تعرفه.

مرّت ساعات احتفالها مليئة بهدايا لن تستطيع أبداً بإمكانيّاتها الحسابيّة المتواضعة أن تقدّر مجموع أثمانها الباهظة.

في جناح واسع بفندق الشيراتون كان موعدهما مع الحقيقة، رغم أنّها تعرف حتّى لو كان الطبيب قد فشل في أداء ما هو مطلوب منه ترقيعه، فإنّ مسار واقعة زواجها لن يتغيّر، لكن منبتها الريفيّ فرض في داخلها ثقافة لا تريد أن تتجاوزها ولا تريده أن يأخذها كنقطة ضعف لاحقة في حياتها. كان السرير الواسع ينتظر احتضانها والمرايا الهزيلة التي وزّعت على أبواب الخزائن تنظر إليها بشغفٍ، نزع عن شعرها طرحتها التي اشتغل على زرعها في مكانها أكثر من أربعة خبراء للتجميل برئاسة المسيو مأمون شخصياً أشهر كوافير في دمشق. اقترب منها، سألها أن يرقص فرحاً بأعظم ليلة في حياتهما، كانت موسيقى جيمس لاست قد لامست مشاعرها وهي برفقة عماد في غرفة أقلّ ما يمكن أن توصف به أنّها بقذارتها لا تتناسب ووجود معزوفة لهذا الموسيقار العظيم.

تساءلت في نفسها: لكن كيف عرف أمجد أنّني أرقص على أنغامه، وكأنّما أطير في الهواء أعتلي سماءات وسماءات، تغادرني نفسي لترتقي هناك، حيث اللاوعي وحده، أمشي بين غيمات تمطر حبّاً، وتتهامس قصائد، أشعر بأصابعه تخترق رقبتي من الخلف، ثمّ تحيطني ذراعاه نزولاً إلى خاصرتي وتسافر بين خيوط فستاني الذي لا أعرف كيف انزلق عن جسدي، ثمّ حملني إلى ذلك السرير الذي يشتهيني، لولا أنّ رائحة دخانه التي اختلطت برائحة خمره أيقظتني من شرهي إلى تلك اللحظة، لا أعرف كيف انطويت على نفسي أبحث عن مستقرّ ينجيني من تحت جسده الثقيل الذي لا يذكرني بشيء من عماد، على العكس فهو نقيضه تماماً، ربّما ذلك الأثر المتبقّي لجرحه، رغم مرارة ذكراه عنده، فقد كان النظر إليه أحبّ إليّ من هذا الجسد.

تذكّرت فجأة تعليمات الطبيب الفرنسيّ حول الطريقة التي يجب أن تسلّمه بها جسدها ليتمكّن من اختراقها عبر تلك «القطبة» السحريّة التي يحاك حولها وبسببها أشهر قصص جرائم الشرف في مجتمعاتنا الشرقية والإسلامية.

كان أمجد ثملاً بما فيه الكفاية لتتمكّن منى من قيادة حركته على السرير، كلّ ما كانت تريده هو أن تلقي بوجهه قطرات دم قانية على منديل أبيض. أعدّت والدتها كلّ البدائل الممكنة لها في حال فشلت العمليّة المرجوّة. كانت رائحته تزعجها، فتحاول إبعاده عن وجهها لينزلق نحو جسدها وجعلته يباشرها، تأوّهت كما لم يحدث معها سابقاً، فقد كان ينتزع في طريقه خيطاً شدّ بإحكام إلى جوفها، شعرت بسائل فاتر يأخذ طريقه إلى شراشفها، وبحركة سريعة تناولت المناديل البيضاء لتمرّغها به. عندما رفعتها إلى وجهها وكان هو يصرخ صرخة النصر المؤزّر، تضحك في سرّها لهذا التعبير الذي خطر ببالها والذي كان عماد يستهزئ منها عندما يستذكر حرب تشرين التحريريّة، ويقول: «يا أيّها النصر المزوّر.. يا من حملت إلينا القنيطرة على صفيح مهدّم وأخذت منّا الرجولة والسيادة واستعبدتنا إلى يوم نبعث من جديد».

دفعته بعيداً عنها، رمت بوجهه أسطورة نصره المضرّج بالدماء، وانطلقت إلى الحمّام تعيد ما ملأت به معدتها خلال يوم طويل، استندت إلى الباب تتفحّص وجهها الملوّن بالنفاق والكذب وكلّ مساحيق التجميل. سألها وهي ملتفّة بالمناشف البيضاء: هل تتألّمين..؟ وجهك أصفر.. أما زلت تنزفين..؟ منى أرجوك أن تفهمي أنّ ما يربطنا الآن ليس فقط عقد الشراكة بين والدينا.. أنا وأنت زوجان، وأريد لهذا الزواج أن ينجح بعيداً عن كلّ شيء.. أرجوك..

إلى الأبد..!

كان لكلامه وقع غريب، ما معنى أنّنا زوجان..؟ ما معنى أسرة..؟ لم تخطر هذه المصطلحات ببالها أبداً، لكنّها شعرت بها رغم كلّ اعتراضاتها على شخصيّته الهلاميّة التي عرفتها أمام سيّده المهندس. كانت تراقبه وهو يدخل معه إلى مكتب والدها أشبه بالمرافق منه بالزميل.

حزنت لأنّها حلمت برجل قويّ يسعدها كامرأة يأخذها بين ذراعيه، يعيدها طفلة متى تشاء وامرأة حيث أراد، ويجعل منها كما كان يقول حبيبها عماد أمّاً للدنيا كلّها.

لحق بها حيث علق لها أثوابها الزاهية، اختار لها ثوباً شفّافاً بلون الورد الجوريّ يميل إلى الزهر قليلاً، لكنّه يأبى إلّا أن ينافس الماء بشفافيّته، أمسكه بيده، قال لها: هذا اللون يليق بك، رأيتك ترتدينه ذات مساء. هل تذكرين منذ نحو ثلاث سنوات، أردت آنذاك أن أتحدّث إليك، لكنّك كالفراشة لم تهدئي بمكان حيث غادرت باكراً. كانت ضفيرتك التي عقدتها إلى جنبك الأيسر تغريني، لا أعرف كيف كانت مدرستك آنذاك تتّسع لحراكك الذي لا يهدأ..

ارتدت ثوبها الناعم، لملمت بقايا المناديل المبلّلة بدمائها عن سريرها ورسمت فوق وجهها ابتسامة خجولة كانت كافية لتنهي بها قصّة الآنسة العذراء.

نبتتها الصغيرة قاربت على نهاية شهرها الثاني، وعليها أن تخفي ما استطاعت ذلك الملمح الواهن في حركاتها، اتّبعت حمية دائمة تمنح من

خلالها الغذاء اللازم لجنينها دون أن يزداد وزنها بأكثر من أوقيات قليلة يمكنها التعامل معها مع مرور الوقت. أسابيع قليلة وبدأت تباشير حملها تنتشر بين الأهل الذين يتلهّفون لسماع ضحكة وليد جديد بينهم.

الحياة اليومية بمختلف تفاصيلها لم تعد تعنيها كثيراً، كان جلّ اهتمامها أن تنجب هذا الطفل الذي تتشوّق لتعرف كيف ستكون ملامحه.

عند اقتراب شهرها السابع حزمت أمتعتها مع والدتها لتغادر إلى واشنطن حيث لابدّ للمولود الجديد أن يكتسب الجنسيّة، ولتتخلّص من مراقبات كثيراً ما أزعجتها من قبل والدة أمجد التي كانت تحصي عليها أنفاسها، وتقرّر لها ما يجب أن تمرّ عليه من مراحل أثناء حملها، فلم يعجبها وحامها المبكّر وامتناعها التالي عن الطعام، ثمّ طلبت لاحقاً أن ترافقها إلى الطبيب الذي رفض أن يكشف على منى بوجود أحد بناء على تعليمات والدتها.

وعلى عادة معظم أولاد المسؤولين الذين لا يعرفون كيف حال المشافي العامّة، أو الخاصّة في بلادنا، وضعت منى مولودها البكر في مشفى واشنطن هوسبيتال سينتر.

بعد أيّام قليلة اتّصلت السيّدة عايدة لتزفّ الخبر لأمجد الذي راعته الولادة المبكرة، وأرجع الأمر إلى مدّة الطيران الطويلة التي استغرقتها الرحلة من دمشق إلى واشنطن، ما أثّر في وضع الجنين، وأخبرته عايدة أنّ الأطبّاء اطمأنّوا على صحّة الوليد، وقد وضعوه في الحاضنات الخاصّة.

التحق أمجد بزوجته وأمّها وطفلهما الجديد الذي رأى في وجهه جمالاً لم يشهده من قبل، ضحكت منى وقالت: «ربّما لأنّه «سبيعي» لم يكمل أشهره التسعة». هذا النور الذي يفيض من وجهه الصغير، رغم

خفّة وزنه التي لم تصل إلى ثلاثة كيلوغرامات، استهلك وجدان أمجد وفجّر بداخله حناناً لم يكن يتوقّع أنّه يملكه أصلاً..

عاد الثلاثة ووليدهم الصغير إلى دمشق، وما زال النقاش دائراً حول اسم الوليد الذي سمّته هي غيث، وأراده أمجد «حاتم» على اسم أبيه.

الحجم الضئيل كان يؤكّد لوالدته أنّه طفل غير مكتمل النموّ، لذلك أغرقت كنّتها بوابل من العتب لإهمالها نصائحها حول ضرورة أكلها وراحتها.

بدأ غيث حركاته الأولى وكان الجميع قد انشغل بها، وكان على منى أن تلتفت إلى سنتها الدراسيّة الأخيرة التي أجّلتها مرّتين، لكنّها ما إن وطِئت أرض الجامعة بقدمها حتّى اشتعلت بها الذكريات. ذهبت إلى كلّيّة الطبّ تبحث بين الوجوه، هلّل لدخولها إلى الساحة الرئيسيّة عمّار. ضحكت وهي تقول له: أتعمل بوّاباً هنا..؟

السيّارات السوداء تملأ المكان، سألته: «ماذا تفعلون هنا..؟ حسب معلوماتي فإنّ طلبة السنة الأخيرة يداومون في المشافي وليس في الجامعات». ضحك وقال لها: «بعض المحاضرات مهمّة وأنا أضطرّ للدوام حتّى أدوّنها للزعيم».

فهمت الرسالة واقتربت أكثر إلى داخل الدائرة التي تحيط بها سيّاراتهم الفارهة. قالت بصوت عالٍ: «أصبحت ساحة الشبحات بدلاً من ساحة كلّيّة الطبّ».

ضحكت كعادتها، و دفعها صديقهم علي لتقترب من زعيم جلستهم الذي أحاطت به صبايا كثيرات، مدّت يدها تجاهه، فسألها عن غيث الصغير مازحاً: «كنت أتوقّع أن تسمّيه باسمي». قالت له: «لا أريد أن يكون لي في هذا العالم إلّا أنت يا زعيم.. ولو.. أنا أخشى أن

يسيء ذات مرّة فأوبّخه أو يلقي أحدٌ ما اللعنة عليه، لذلك ابتعدت عن اسمين عظيمين؛ أنت وشقيقك الأكبر».

كانت حنان تتحدّث بلهجة حلبيّة تقف إلى جانبه، رمت منى إليها بابتسامة خبيثة وقالت لسارة: «من الواضح أنّ صلاحيّتك يا صديقتي مديدة». فأمسكت سارة بيد «الزعيم» وقالت: «للأبد..». فصفّق لها مَن حولها على عادتهم بعد أن تتردّد هذه العبارة.

سألت منى: «أكنتم في حفلة مجون كالعادة..؟». فردّ عليها بسؤالٍ: «أتحنّين لمشاركتنا وقد مللتِ الباش مهندس». اقتربت منه لتثير غيرتهنّ: «عليك بسؤاله أو سؤال «معلّمه»؛ شقيقك الأكبر، إذا كان هو قد ملّني، فأنا ضيفة الشرف في حفلكم القادم، أعلّمكم فنون ما بعد الزواج..».

ردّت سيرين عليها: «كلّ الفنون تموت عند لحظة الزواج نفسها، لذلك نحرص على بقائنا فنّانين إلى الأبد..»

ضحكوا وهم يردّدون: «إلى الأبد..».

وعاد التصفيق من جديد.

الفتاة ذات الملامح الغجرية السمراء الجميلة لم تترك ملاحظة منى تمر دون رد يبدد مصداقية سارة فأخذت مكاناً متميّزاً إلى جانب الزعيم فوق مقدّمة السيّارة، أسرّت له بشيء ما جعله ينهي الجلسة ويغادر، فتفرّقت الجموع.

منى تراقب باب الجامعة وتتفحّص الداخلين والخارجين، لمحت أحد أصدقاء عماد، فسرّعت خطاها مودّعة مَن بقي على عجل. بين جموع الطلبة سارت لتلحق بمعد؛ ذي الخطوات السريعة التي تتناغم وحركة كتفيه، حتّى تكاد تشكّ أنّه يتراقص فوق الماء. كان عماد يناديه بالغزال، وضعت يدها على كتفه لتنبّهه لوجودها قائلة: «أتذكرني..؟».

نظر إليها والرعب أخذ مفاعيله على تعابيره جميعها حتّى ارتعاشة يديه. ردّ: «نعم». وبتردّد واضح لفظ اسمها: «منى». وهو يشير بكلتا سبّابتيه. سألته: «هل تعرف أين هو..؟». شرد بذهنه، تذكّر كلّ تفاصيل سنتين مرتا. راعه أنها لا تعرف أين هو وهو أقرب إليها منه مكاناً وعملاً وقدرة على الايذاء، صمت ثم قال معتذراً منها: «لا لم أرَه منذ أن..» ثمّ توقّف قليلاً وعاد ليقول: «منذ عامين تقريباً..».

أطرقت برأسها وقد أخذت طريقها دون أن تنبس بكلمة، عادت إلى بيتها حيث هو معها في كلّ لحظة، احتضنت طفلها، وغمرته بدموع تفيض حرقة ولوعة وفراقاً..

اختبارات القدرة

أصوات صاخبة رغم كلّ إجراءات الحذر التي اتّخذت حول قاعة الاجتماع، لم يكن من السهل تجاوز الحرس الذي منع كلّ عابر، أيّاً كانت صلة قرابته بالمكان، لولا أن لمحها الدكتور فاروق مدير مكتب والدها، واقترب منها معتذراً عن منع العناصر الأمنيّة دخولها تبعاً للتعليمات الصادرة. رأت سائقين تعرفهم، هذا لوالد زوجها وذاك للواء ماجد، والآخر لعلي.. وغيرهم.

لحظات قليلة فصلت دخولها عن خروج والد زوجها وقد بدت قسماته غاضبة على غير عادته، لم يلتفت إليها وهو يلقي آخر كلماته قبل أن يغلق الباب خلفه.. «نحن نبني دولة لا مملكة..».

كادت تقفز من مكانها. لم تعرف إذا كان الخوف قد تملّكها لشدّة ارتطام الباب أم ممّا وصلها من معنى كلمات اللواء المغادر على ما يبدو إلى غير رجعة لهذا المكان.

لم يمضِ وقت طويل حتّى انفضّ عقد الاجتماع. كانت الوجوه واجمة، لكنّ الباب عاد وأغلق من جديد. أرادت الدخول إلّا أنّهم أخبروها أن «المعلّم» بالداخل. ضحكت في سرّها، ربّما عرفت الآن فقط حجم الكارثة التي حلّت بمنزلها حين عادت لتودّع رجلاً لملم كلّ ذكرياته العسكريّة، ليضعها في حقيبة سيّارة لن تدور عجلاتها على أرض العاصمة من جديد.

أمجد الرجل الهلاميّ لم يكن ليرافق والده إلى رحلة النهاية تلك، فسارع إلى مكتب والدها ليعلن ولاءه المطلق، ويبقي على نفسه ظلّاً يدوسه «المعلّم» في أحايين كثيرة، ليختبر قدرته على تجاوز نفق الذلّ الذي كان مخبراً أساسيّاً لمعايرة قدرة الآخرين على احتمال الهوان وتماسكهم أمام كلّ احتمالات التمريغ، بدءاً بكرامتهم ووصولاً لأعراضهم.

كان خالد الشابّ الصناعيّ؛ ابن العاصمة، الأقدر على ابتداع ألوان العذابات الاختباريّة لمجموعة الأصدقاء المحيطين، مبتدئاً بنفسه مقدّماً عربون العبوديّة المطلق الذي يمرّ بسرير الزوجيّة، عابراً حدود الجسد إلى الروح أحياناً.

بعد التجربة الأولى يصبح المستغرب مألوفاً، والبعيد قريباً، ربّما هي لذّة السطوة التي لا يعادلها لدى البعض إحساس آخر، حتّى ذلك الإحساس بالرجولة والأبوّة والبنوّة..

دارت عجلة الاقتصاد مبتعدة عن وقائع الحظر المفروض، وبدأت ملامح انكسار الفكر الاشتراكيّ الذي تغنّى به الحزب الحاكم طويلاً ووضعه كخط أحمر، تجاوزه يعني الوقوع في براثن محكمة الأمن الاقتصاديّ لتفصّل لك تهمة تليق بمقاس مَن أحالك إليها، بدءاً من البدلة الحمراء؛ «الإعدام» وتوهّماتها المرعبة إلى فقدانك الحقّ بالمواطنة..

لم تكن تهمة وهن عزم الأمّة ترعب العاملين في المجال السياسيّ، أكثر ممّا هو واقع الأمر لدى الباحثين عن فرصة لتجاوز الركود الاقتصاديّ. الشباب الطامح الذي حفر أوّل علامات القيامة الرأسماليّة في بلد قبضت الاشتراكيّة شكليّاً على أنفاسه، بينما غاصت رموزه بولائم الإمبرياليّة من ولاداتهم المتعثّرة التي لا تنفتح فيها أرحام نسائهم إلّا على وقع أفلام رعاة البقر، لتنزلق أجنّتهم المزدوجة الجنسيّة على الأيديّ

الأميركيّة التي كان مجرّد الإشارة إلى مواقفها، دون إلحاقها بتهمة الإمبرياليّة المنحطّة الأهداف والاستعماريّة الغايات، من شأنه أن يقود حتّى أولاد المدارس إلى أقبية لا تفتح أبوابها إلّا للدخول.

حدث أن قالت ذلك ذات مرّة حسناء - صارت لاحقاً إحدى فاتنات «الزعيم» - عن تجربة لأحد أقربائها في سجن تدمر، استمرّت خمسة عشر عاماً لم يعرف فيها أن أبصر نوراً أو شاهد غياب شمس. كان في زنزانته التي لا تتجاوز بارتفاعها طوله شخصياً، يقفز في الهواء إذا أراد ألّا تتلوّث قدماه ببوله حتّى ينساب بعيداً إلى زاوية الغرفة.

كانت تتلوّى ألماً، تسبح بدموعها في لحظة التجلّي تلك التي عاشها معها على أعتاب الكلّيّة، وهو يهمّ بزيارة قريبه العائد من ألمانيا كمدرّس للغة العربيّة.

لا أعرف ما الذي أوقفه وأشار بيده إلى مرافقيه ليسمحوا لها بالاقتراب منه، لعلّ جمالها العفويّ الذي لم تخطّه يد خبراء التجميل في العاصمة، كحال الكثيرات ممّن حوله. كانت عيناها أشدّ اخضراراً من أشجار السرو والدفلى التي تغطّي حدائق الكلّيّة وترشد إلى طريق الإدارة بكلّ اقتدار.

سارت الطالبة إلى جانبه، وبينما كادت خطواتها تتعثّر رهبة، أسند ظهرها بيده، لتبدأ هناك من على ثاني درجة باتّجاه إدارة الكلّيّة، الخطوة الأولى لإصلاحات عميقة داخل سجن تدمر، وعلى طريق العاصمة ومسقط رأس فاتنته.

صبيانه ينتشرون في الأرجاء، وكلّهم آذان صاغية لدبيب النمل المتحرّك تمايلاً متناغماً أو رفضاً متأفّفاً، وبين العمل ومقتضياته الجدّيّة حسب توجيهات من (المعلّم) شخصيّاً، والتي استوجبت حِراكاً سريعاً وتشذيباً لبعض رموز الفساد، ممّن فاحت رائحتهم حتّى لم يعد بالإمكان ترويض الأنوف على شمّها. ذاعت أخبار عن اختلافات عميقة داخل

الحلقة المقربة للأسرة الحاكمة التي كانت تتقاطع وتتنافر مع حلقتين اثنتين للوريثين، ولكن بأقطار أقلّ تبعاً للتسلسل العمريّ. كانت عوامل التجاذب والتباعد جميعها تعبر من نفق الذلّ ذاته، ويعاد بعدها تدويرها وتهذيبها بما يكفل الولاءات غير المنقوصة بأيّ بند، حتّى ذلك الذي يربط بين زيارة ليليّة سريعة لفاتنة تغدو في اليوم التالي زوجة للصديق المرافق، وتنال تسمية رفيعة في مجتمع سيّدات العهر السلطويّ، وبين صبحيّة عروس لم تعرف حتّى لحظة هتك بكارتها اسم الموقّع على عقد زواجها. فحماية مصالح المقرّبين منهم مثار إعجاب الدوائر القريبة والبعيدة الساعية إلى اتّخاذ مواقع أكثر تماساً مع لحظات الفجور الغرائزيّة.

اتّخذت أشكال الحياة مساراتها الجديدة، وبدأت عجلة النموّ بأرقامها الغرائبيّة تتقدّم على صفحات الإعلام وشاشات التلفزة، النموذج الاقتصاديّ الجديد، والشراكات النوعيّة بين أولاد الأمنيّن الذين فاقوا ذكاءً كلّ مسابر الفحص البشريّ، وشريحة شباب عرفت كيف تخترق مناطق الحظر لتصل إلى الدوائر السعيدة عابرة كلّ امتحانات الصبر على حركات تطهير الرجولة من أخلاقيّاتها..

أولاد الذكاء الخارق بمؤسّساتهم العمرانيّة بداية إلى قنّاصي كلّ المناقصات الرسميّة والوكالات الحصريّة، عاشت العاصمة على أنغام موسيقى الروك البديل الخارجة عن قوانين الروك أند رول الكلاسيكيّة، وإذا كان هذا يعني شيئاً من الإبداع الجديد في الغرب، إلّا أنّه كان بين أبناء العاصمة؛ أولاد البرجوازيّة الحقيقيّة، رمزاً لهؤلاء المرتزقة المنتشين حديثاً اقتصاديّاً، لأنّه في معناه الحرفيّ يعني جمع كلّ فرق الروك المغمورة لإحداث فرقة جديدة تحت مسمّى الروك البديل، أو حسب ما هو متداول سوريّاً الشركات المساهمة، ومن ثمّ القابضة، التي قبضت على جيوب المواطنين قبل أن تقبض على مقدّرات البلد وثرواته.

كانت خيارات أبناء العائلات تتأرجح في تلك الفترة بين المشي في ركاب هذا الثور الحداثويّ المتغوّل عليهم، أو تحييد نشاطاتهم بعيداً، وربّما الفرار بها إلى دول الجوار، وبعض الأسر من مختلف المحافظات وجدت في الهجرة ملاذاً آمناً لأعراضها وأموالها وما بقي من تاريخ مأثور عنها، وبعضها الآخر قرّر أن يتوارى بماله ونشاطاته بعيداً عن أعين مراصدهم، ولكن هذه الحلقات الحاكمة اقتصادياً إحتاجت رجال أعمال عريقين في لحظة ما لتبييض سمعتهم بسمعته فأجبروا على دخول شراكات اقتصاديّة تحت تهديدات أمنيّة.

أخبار السهرات الماجنة داخل الحلقات الثلاث ترعبهم وتثير الخوف أكثر لديهم، هذا التكالب على انتزاع بعض أسوارها لصالح تداخلات غريبة لم يجد مَن كان ينقلها لي مبرّراً أو حتّى هدفاً لها..

الدعوات الموجّهة لتلك الحفلات لم تكن كالمتعارَف عليها، تستطيع أيّة عائلة أن تقبلها أو ترفضها مرسلة أكاليل الزهور بديلاً عن اعتذارها، في حقيقتها هي أوامر إحضار لصبايا تداولتهم الأحاديث، وتناهى إلى سمعهم أنّ جمالاً ما بين جدران هذه العائلة أو تلك قد غاب عن أنظارهم.

تبدأ الحفلات، التي تكون تحت اسم الحفلات التنكّرية العائليّة بغياب واضح للمستفيد من الدعوة الذي غالباً ما كان يتلطّى وراء كاميرا يراقب حركة العبور، أو ينقل له عبر الهاتف في حال تعذّر حضوره وقائع الحفل مباشرة، حتّى إذا ما كان الناقل حِرفيّاً ومثيراً استدعاه للمثول بين الجماهير ودعوة الحسناوات للرقص.

شاهدت كثيراً ممّن كان يريد اختيار حلّ وسطيّ، لا هو رافض للحضور ولا هو قادر على المجون يدخل لبعض الوقت، ثمّ يغادر قبل أن تدقّ ساعة الصفر أجراسها معلنة حلقة الرقص الشرقيّ التي تنبري عادة له

آنسات يتحوّلن بعد ليالٍ ماجنة، جماعيّة أو فرديّة، إلى زوجات مرموقات لشخصيّات سوريّة تنتسب أسماؤها لا أفعالها إلى عراقة عائليّة لها احترامها في المدن المختلفة.

الأصدقاء ذوو «الرقاب السدّادة»، يتبرّعون بعقد قرانهم على أولئك الفتيات ولو لبضعة أشهر ترفع عنهنّ إثم هتك بكاراتهنّ.

كانت حسناء بما يكفي لأن يأخذها سيادته إلى الغرفة الوحيدة في بهو منزل صديقه الصناعيّ، دون أن يعير اهتماماً للجموع التي ترصده. بينما هو يسبقها، كانت تنتشي فرحاً بأنّها عروس الليلة بفستانها الأحمر المفتوح من الخلف من أعلى فخذها الأيسر حتّى كعب قدميها، والمتشابك بحباله على ظهرها المفتوح على وردة تفتّحت من جديد، وتلقي بأوراقها على كتفيها.

كان ذاك المشهد الخلفيّ كلّ ما استطاع صديقي أن ينقله عنها بعد أن أدارت وجهها الهارب من لوحة فارسيّة، كان يشتهي اللحاق بها لتكتمل بذاكرته كلّ تفاصيل فستانها الذي لا يزال يذكره بشكل منقوص ومتأوّه.

أنصت الجميع لهول صوت الباب وقد أعلن تمرّده على الصمت ذاته، كانت ضحكاتها العابثة تحوّل وجوه الحضور إلى علامات استفهام، يرسمون من خلالها فصلاً جديداً في حياة امرأة وضعت للتوّ كرسيّها إلى جانب واحد من رجالات الدولة الصناعيّين، ولكن...!

صرختها كانت مدوّية، ولولا أنّ فستانها بلون الدم أصلاً، لأمكن للآخرين كلّهم أن يشاهدوا معالم فحولة سيادته عليها.

تأبّطت عشيقاً

همسات مرتبكة ونظرات غارقة بالأسف، وحدها تملك لها عشرات المبرّرات، قهقهت، صرخت، تأوّهت، جثت أمام والدها الذي يكيل الشتائم والسباب، ويزرع المكان غلّاً وتوعّداً، ببساطة رحلت، تأبّطت خادمها عشيقاً ورحلت.

أيّها القدر القذر أين هي..؟!

أكنتِ تعرفين أنّها ستفعل وأنا غارق بجهلي..!

أسئلة والدها لاحقتها، فغابت في بحثها عن إجابات تنافق بها هذا الزوج المدّعي انخداعه. وقفت واستدارت مغادرة المكان، أمسك بثوبها الغارق بسواده حزناً، التفتت إليه، سألها: أما زلت بحدادك عليه..؟

لم تشأ أن تقول له إنّ حزنها ليس بسبب موت صديقها ومعلّم زوجها في ظروف أشبه ببرامج التوعية المروريّة، وإنّما بالبديل الذي على زوجها أن يتطاول حتّى ضعفه، ليشكّل له ظلّاً يدوس عليه من جديد. ومن ثمّ يدخل نفق الذلّ تارة أخرى، وقد تضطرّ هي أيضاً أن تعبره معه.

لم تكن الولاءات السابقة كافية لدفع الأمور كي تسير قدماً، وعلى الجميع العبور زاحفين بأنفاق ذلّهم، حتى أولئك الذين ينتسبون لعائلات الهندسة الوراثيّة الجديدة للحكم الأمنيّ.

تدرك منى بقرارها أنّ أمّها الهاربة من وحل السلطة إلى أحضان الحبّ والفقر، لن تعود إلى هذه الديار مرّة أخرى، ولن تسمح لهذا السفيه أن يقرب جسدها، وهو يجلدها بقصص عنترياته على شباب لا حول لهم

ولا قوّة، وقد وقعوا قيد الاعتقال الروحيّ، قبل أن يدركهم هو ليوقعهم قيد الإذلال الجسديّ.

آهٍ يا أمّي تستطيعين اليوم بهروبك أن تختزلي بطولاتهم الفارغة إلى مجرّد ذكرى.

تدغدغ تداعيات الحدث المَهول على والدها ذكرياتها الغائرة فيها جرحاً عميقاً.

لكن أتراه حزيناً على أمّي أم أنّه في جزء كبير غاضب ممّا يعصف بعمله وموقعه من تغيّرات أدخلت قوى كثيرة فاعلة معه؟ لم يكن مستعدّاً لمواجهتها، فالرجل الجديد الذي برز كأحد رموز الحكم فجأة يقلقه حيث لاتخضع الحلقة المقربة منه إلى معايير وتكتيكات الدخول إلى الحلقات الأخرى من فنون الذل والترهيب وانتزاع حتى آخر بقايا الإنسانية، على العكس تماماً فقد بدأ فيها دبيب حياة لمتمرّدين تارة ومسترجلين تارة أخرى.

كانت بطاقة دخوله ورقة رابحة فهو زوج المرأة الوحيدة في أسرة الحاكم وتعرف بحكم مكانتها ومكانها عوامل الجمع ومرتكزات الفرقة، رغم ما عانته في أشهرها السابقة من إبعاد وتنكيل.

هي امرأة ناضجة بما فيه الكفاية ليكون هروب هذا الضابط المتشق رجولته إليها من زوجة وعائلة كبيرة هو انتصار بحدّ ذاته.

آهٍ.. أمّا أنت يا أمّي العزيزة، فهروبك إلى الحبّ الذي افتقدته ولجوؤك إلى حضن رجل يفيض شباباً، لا شكّ أنّك وجدت فيه الدفء الذي يغيب عن حضن أبي، بل ليس هذا فحسب، ولكنّه كان سعيراً يحرق روحك الطامحة إلى السعادة.

ما أقسى مفارقات الحياة علينا..!

نعم. فهروب ضابط إلى جحر السلطة انتصار، بينما هروبك من وكرها القذر جريمة.

الهروب كحال أمّي انتحار مؤجّل موته، لكنّ ذاك الضابط كاد موته يسبقه إلى المكان، لعلّه أكبر حجماً من أن يستطيع دخول نفق الذلّ، فشاء صاحب الحلقة الأصغر أن يقصقص بعض أطرافه. لا شكّ أيّتها المرأة الحديدية أنّ رسالة أشقّائك إليك وصلتك على صفيح مشتعل، لكن ممّا لا شكّ به أيضاً أنّ نزوعك إلى الحياة معه أشدّ قوّة من رصاصة الغضب التي زرعها شقيقك الصغير بجسد معشوقك انتقاماً وتحذيراً.

وأنت يا أبي كيف سيكون انتقامك..؟ عابراً للموت أم مستقراً به؟ وأي يد حملت الموت لوالدتي..؟ لا شكّ أنّ يدها المرتجفة نشوة لن تقوى على زرع سكّين بمعصمها كما تحاول أن تشيع عن جنونها، وهي لم تحرّر جسدها من رجسك المخلوط بعرق مئات الأخريات، اللاتي يرمي بهن سيده المنشغل بأكل أظافره عن إشباع شبقهنّ المتفتّح حديثاً على يديه الآثمتين. نعم لم تحرّر جسدها من رجسك لتقع في محظور الانتحار. عليك أن تقدّم رواية أخرى تقنع بها هذا المجتمع المتململ من فجورنا؛ نحن أثرياء السلطة المأفونة.

قالت في نفسها: كلّنا نسرق بعضنا، فهذا الطفل الذي أعيش به ومعه هو مجرّد ساعات سرقتها من هذا الكون لأكون سعيدة. ما أبشع أن تكون الجريمة سبب سعادتنا المنشودة..!



حراس النفق

أخبار انتعاش الاقتصاد على يد المنقذ الاقتصادي حسب ما يتداوله الناس من تسميات لقريب العائلة الحاكمة تزرع عميقا الاختلاف داخل الحلقات، التي عادت لتكون ثلاثاً بعد وفاة ولي العهد الابن الأكبر لسيادته، الكبير الحكيم المستجد في أمور الحكم والأوسط والصهر، ولكلّ سفراء وممثّلون عن اقتصاديّاتهم النامية بسرعة الصاروخ، وانتشرت علب الهواتف في الشوارع، لتؤكّد رغبة السلطة في التواصل بين الناس، مروراً بها طبعاً.

كان ذاك الإنجاز الاتّصالاتيّ بقدر ما يفرحني، لأنني ورغم وجود الهاتف في منزلي، إلّا أن وجوده في الشارع كان يبعث عندي لحظة أمل بأن يرنّ هاتف بيتي، ليقول متحدّث ما من إحدى هذه الغرف: أنا عماد «أشتاقك».

ضابط شابّ ينافس بحسنه وهيبته عماد، وكان يقع في نفسي شيء من الاستحسان عندما أراه، كان هذا الشابّ قد ورثه الزعيم الحكيم عن الزعيم المهندس كصديق صدوق أثبت ولاءه للوريث الجديد لحظة التشييع المهيب عندما هب بوجوه أنصار زعيم السرايا التي استباحت بجبروتها البلاد والعباد معلنا أن ولاية العهد لن تكون الا للحكيم، وكانت زوجته إحدى المقرّبات المسموعة الرأي، كثيراً ما كنت أراهم يناقشون قضايا اقتصاديّة وتعليميّة، دون أن ينسى هذا الوسيم الغمز على رجال الأعمال «القدّيسين»؛ الذين لا يعرفون طعم الخسارات في مجتمع استباحوه

كشركة، وتقاسموه كغنيمة، وتعاملوا مع شعبه كأسرى في زمن اللامواثيق دولية تحكم بشاعة تغوّلهم على حقوقه.

يا إلهي لم أكن أتوقّع أن تغلغل عماد في روحي أشدّ من تغلغله في جسدي، لو عرف ما فعلته أمّي لأدرك صدق قولي له: «إنّه كلّ أهلي».

لو حملني معه تلك الليلة بدل أن أبقى بعض إرث لهذا المتلعثم أبذل نفسي، لأتحوّل إلى بوق معلوماتيّ في جمعية تفرز نخبة أو حثالة المسؤولين، لكنّها بطريقة ما أصبحت واحداً من معابر نفق الذلّ برائحته المتعفّنة ودهاليزه الدنيئة.

أمّي قبل أن تنتحر اجتماعيّاً، وتموت تكنيكيّاً، قالت لي ذات يوم إنّ رائحة العفن التي تتنشقّها من أنفاس والدي مردّها أنّه أحد حراس نفقهم النتن، وأنّه لم يتوانَ أبداً بإخضاعها هي نفسها للعبور منه، وتذكر بحرقة كيف أنّه قام بتصوير بعض تحرّشات أصدقائه بها، هو قال لها آنذاك ليذلّهم بها، لكنّه في الحقيقة قد وضعني معها في خزنة الخطيئة التي كادت أن تخنقني. وقالت إنّه عندما يفرض على جسدك أن يكون مشاعاً تحت وهم السلطة، فالأولى أن تخصخصيه لمصلحتك العليا.

أمي صارت تستهلك العبارات الاقتصادية التي تجتاح الفضائيات، كما تتعامل مع عطورها وفساتينها فجميعها قابلة للتجديد. لكنّ هذا السائق الذي طالما أدخل الغيظ إلى نفسي بنظراته التي تتسلّل إلى مفرق صدر أمّي... آهٍ كيف غاب عن بالي أنّني دخلت يوماً إلى مخدعها، وقد كان خارجاً لتوّه من هناك بينما والدتي تسبح في عريها. ادّعت أنّها ذاهبة للاغتسال، بينما كان عبقها الفرنسيّ يضوع بين لوحات عارية لنساء ورجال تغطّي الجدران، وبين مفارش أسرّتها المخملية التي تتوزّع عليها حكايات صينيّة نسجت بإتقان وحِرفيّة، وتنتشر مناديلها القطنية تحت طرف السرير نازلة من وسادتها.

كنت أضحك كلّما نظرت إلى سريرها الدائريّ بحجمه الكبير، وكيف يمكن أن يضيع والدي بجسده الضئيل بين أغطيته. ألهذا الشاب صنعته أمّي أم أنّهم كثر..؟!

الصدمة الاجتماعيّة التي تلقّاها حيدر هي أخفّ من تلك العاصفة التي اجتاحته بها تالة؛ الزوجة الحسناء التي تمكّنت من أن تكون في تقاطعات الحلقات كلّها. وعقد شقيقها الاتّفاقات اللازمة له، ليكون محوراً اقتصاديّاً وشريكاً محتملاً لحيتانٍ لن تبقي شهيّتها على شيء لآخرين. حمدت الله أمامه أنّ أمّه انتحرت، أو حُمِّلت على ذلك، دون أن تلتفت إلى ثقل تلك العبارات عليه، فهو ورغم انغماسه بين فساده الاقتصاديّ وفجور زوجته السلطويّ، إلّا أنّ حنان والدته العابق بكلّ ذكرياته يمزّق قلبه. صحيح أنّ أحداً لن يتجرّأ أن يلمّح إلى أسباب مقتل والدته، أو أن يقول غير الرواية الرسميّة التي صدّرها والده، لكنّ الرهان على تداولات الجلسات الخاصّة أمر صعب جدّاً.

كلّ المشكلات مهما عظمت يكون لها حلّ سريع عند والدي وأمثاله، الذين يطلقون العنان لشرّهم الخبيث. وسُحبت واقعة هروب والدتي، ومن ثمّ جنونها وانتحارها من التداول بحدث أكثر بشاعة وإجراماً، أبطاله نجوم سياسيّون، ووزراء وقيادات مرموقة.

تمّ تسريب مقطع فيديو مصوّر لحفلة مجون، أبطالها وزراء وقيادات عليا، ليغدو حديث الشارع المتشوّق لحكايات دونكيشوتيّة. ربّما لم يكن والدي هو من قام بالترتيبات اللازمة لذلك، لكنّها لا تبتعد أبداً عن مدرسته الموغلة بالقذارة، التي كانت والدتي - سامحها الله ورحمها- تشتمّ رائحتها، وتقول بعد كلّ صرخة انتصار يطلقها معلناً إزاحته لرجل أمن أو سياسيّ أو بعثيّ: أيّ تهمة لئيمة تراها كانت وراء هذا الانتصار..؟!.



حافّة الخطيئة

يساورني شكّ كبير أنّ أحداً من عامّة الشعب يعرفنا على حقيقتنا، فذلك الاحترام الذي يبدونه خلال مرورنا العابر بحياتهم، ربّما هو ما يعطينا مدّاً إضافياً بغيّنا واستعبادهم، فأنا لازلت أذكر شباباً وشابّات في الجامعات، رغم ما رسمته ملامح الحياة القاسية عليهم من حزن وتعاسة وفقر، يقدّمون ولاءاتهم الأبدية.

سألت شابّة، زارتني ذات يوم، لإجراء لقاء معي حول نشاط اجتماعيّ، كنّا قد ابتدعناه، لنعطي لحياتنا أبعاداً إنسانية، ونلقي بصورنا في المجلّات والصحف لنوهم الناس أنّنا نمتلك مشاعر إزاء اليتيم وذوي الاحتياجات الخاصّة، ونبري لمساعدتهم وتقديم أموالنا وعواطفنا الجيّاشة أمام الكاميرات. وكانت سلام تشقّ طريقها في عالم الصحافة، وتقدّم خطباً بارعة في التصدّي والصمود، وتتحدّث بقدسيّة لافتة عن المقاومة ورمزها. سألتها عن الواقع الاقتصاديّ، فشرحت لي بشكل عميق جدّاً انعكاسات الحصار الاقتصاديّ، وخطورة الانعطافة الاقتصادية التي سمّتها الفورة الاقتصادية لأبناء المسؤولين، وكيف أنّ انخفاض مستوى المعيشة، سيتسبّب بضرب الطبقة الوسطى في المجتمع، الطبقة التي هي عماد تطوّر الدول.

كان حديثها متقناً ومستوعباً كلّ تفاصيل الحِراك غير المعلن لطبقتنا «البرجوازية السلطويّة»، كما يسمّيها عماد. أخذتني بثقافتها وبساطتها وأناقتها وفهمها، شيء ما جعلني أرى فيها مستقبل المرأة، لولا عتبي عليها أن وعيها كان كبيراً بكلّ شيء، إلّا فيما يتعلّق بحقيقة أشخاص

أعرفهم أنا بصورهم الحقيقية غير المزيّفة. لكن في زمن لاحق جدّاً أجابتني هي ذاتها، وكانت قد اقتربت للغاية من تحقيق نبوءتي حولها، قائلة: إمّا أنّكم أحسنتم إدارة تغييبنا عن الواقع وتزوير وقائعنا، أو أنّنا استسغنا فسادكم حتّى صرنا جزءاً منكم..؟!

أسمعها تتحدّث فأستغرب بشدّة، لأنّها مثّلت بالنسبة لي جيلاً من الشباب المغيّب عن حقيقتنا، يصدّق الأكاذيب المصدّرة من خلف مكاتبنا، ويتحدّث عن أمل يحمل مِشرطه الطبّيّ بيد، وصليبه الإصلاحيّ بأخرى. كانت كمن يصاب بمسّ من الألق الفكريّ، وهي تتحدّث عن ثورة أطعمت الفقراء، وعلّمت المحرومين، كنت أضحك لإعجابها تارة، وأضع آلاف إشارات الاستفهام أمامها، فكيف لفتاة متّقدة الوعي أن تكون مريضة بإيديولوجيا الحكم..؟

ذات مرّة كتبت سلام عن مؤسّسة الفساد التي استشرت في البلاد، وختمت كتابتها بسؤال لا أعرف كيف لم يلتفت إليه والدي أو أحد من نظرائه، وقد كانوا يتعقّبون كتاباتها الجريئة كما أذكر. كان سؤالها: أتراهم أحسنوا إدارتنا بفسادهم أم أنّهم أتقنوا تغييبنا؟!

مرّت العبارة الملغومة تحت غطاء الانفتاح الإعلاميّ على النقد، لكنّني حين قرأت بعد سنوات من تعارفنا، وقد أخذ اسمها وقعه الخاصّ بين الناس، قالت ما معناه، أن تؤمن بشخص ليس جريمة، لكن أن تكفر بشعب وحقوقه هذه هي الوطنيّة كما يعرفونها، وكما يريدوننا أن نعمل بها. ويلٌ للكافرين..! آهٍ كيف انقلبت المعايير..!

اختلف خطابها وبدت أكثر إدراكاً لحجم مسؤوليّتها تجاه الكلمة، وحده «الزعيم» كانت تتجنّب الخوض في نقاش حوله، لكن سمعت قصصاً تحاك حول تأفّف جهات كثيرة من مِداد حبرها الذي لم يبقِ خطوطاً حمراء أو حتى أبواباً مواربة.

لا حقائق مؤكّدة عن تمرّدها الفكريّ عن المحيطين بها فيما يتعلّق بخطّها السياسيّ، لكن كلّ ما هو غير ذلك مؤكّد ومعلن ومكتوب، فقد بدأت تصرخ في وجوه طالما كان النظر إليها محرّماً، وبخاصّة ذلك المارد الاقتصاديّ الناجي من الموت، ليأكل حياة السوريين، ويبدّد حلمهم الاشتراكيّ بكذبة انفتاح ليبراليّ، بابها الوحيد يمرّ من خلاله وعبر عقود الشراكة معه، كشرط أساسيّ للتسجيل في سجلّ بناة سورية الحديثة..

الحياة القاسية وازدياد الفقر، والتفاوت الطبقيّ المرعب، أسباب رئيسة لمتغيّرات اجتماعيّة خطيرة تهدّدها الجريمة، فكيف غابت الخطط العلاجية لتتقدّم الخطابات الإعلامية لمسؤولين يتبجّحون بأرقام اقتصادية وهميّة تماثل في تضخّمها حجم التضخّم الاقتصادي وانهيار اقتصادنا فعليّاً.

سلام صحافية تبتدع خطاً مختلفاً عن الآخرين تماماً، كجمالها المختلف وطولها اللافت، لم تكن من ذوات العيون الواسعة والملوّنة، لكنّها كانت صاحبة عينين تفيضان همساً، حتى لتكاد تظنّ أنّها تتحدّث في صمتها. ابتسامتها تغريك أنّ شيئاً ما بالطريق إليك فتنتظره إلى ما لا نهاية. قال لي أحد الذين توهّموا مرّة بأنّهم قد يظفرون بها: تعتقدين أنّ نصرك قريب لكسر عنجهيّتها، فتطلقين العنان لمخيّلتك، تخططين وترسمين، تحيكين سيلاً من التمنّيات، وما إن تصلي إلى حقيقة وهمك حتى تنذري نفسك أنّك ستكرهينها، ستقلبين الدنيا عليها، فتكتشفين أنّك أسيرتها؛ أسيرة صدقها وطيبتها وذكائها.

سألته: أمغرم أنت..؟ قال: بل صديق. هي أرادتني صديقاً.

لا أكذب أنّني تمنّيت لو كان لسلام علاقات غرامية كحالي حتّى لا أشعر بذلك الضيق كلّما حدّثتني عن المنظومة القيمية والخوف عليها. نعم كنت أجاريها بالحديث، وأنا أعلم حجم مأساتها لو عرفت أنّني واحدة ممّن يمكن الحديث عن تفنّنها في ضرب هذه القيم وإحلال فسادنا مكانها..

رغم أنّني عقدت صداقة متينة مع سلام، إلّا أنّها لم تجاملني يوماً ولم تكتب سطراً واحداً عن نشاطي الاجتماعيّ، ولربّما كنت أحد أسبابها لتهجر هذا النوع من الكتابة، وتذهب إلى عالم الأرقام والحسابات..

قالت لي مرّة وقد تعمّقت أواصر علاقتنا، وكنت أكبرها بنحو عقد من الزمن: كيف نقتنع أنّكم تشعرون بالفقراء والمحتاجين وأنتم السكّين الذي يذبحنا وعلى موائدكم تلقون بلحمنا..؟!

- أتعتبرين نفسك يا سلام منهم..؟

- على الأقلّ ابنتهم.

هكذا كانت تصف ارتباطها بهم.

في أحد المساءات البعيدة هتفت تسألني أن نلتقي، كان صوتها حزيناً، تكاد كلماتها المبلّلة بالدموع تجعلني أقفز إليها من سمّاعة الهاتف، شعرت بانكسارها كامرأة، وهي المرّة الأولى التي جمعتني بها. تبكي بصمت وتصرخ بلا صوت، كنت أتوقّع أن تكيل الشتائم لزوجها، وأن تتفنّن في وصف سيّئاته، وأن تحملني على كرهه وتحرّضني على عدائه، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، جعلتني أتوق إلى التعرّف إليه، أن أتمنّى لحظة لقائه، وأن أكتشفه كامرأة.

نعم لقد كان زوجها وقد أدخلته إلى دفتر أسراري كعاشق رغبت به من خلال وصفها له، وسعيت إليه لا رغبة كما كنت أوهم نفسي بمصالحتها عليه، ولكن بمصالحتي أنا على جسدي. ما أعمق ما حفرت بنا قذارة تربيتنا الأمنيّة..! آهٍ لو عرفت أنّ العشيقة التي اشتكت إليّ، أنّها قد تهدم حياتها الأسريّة، قد تلاشت بفعل احتلالي مكانها، وليس بفعل اعتراف المذنب بخطاياه كما أوهمتها، وأرادت هي أن تتوهّم..

سلام محقّة جدّاً في تمسّكها به، فهو رغم عبوره، كما يبدو لي، لعشرات النساء، وأنا منهم، كان يذكرها باحترام شديد وحبّ وافر. ذات

يوم كنّا غارقين في كبائرنا، وكنت أستذكر فيه صحوة جسدي على يدي عماد، سألته: «أتحبّني..؟». فصرخ في لحظة نشوته الغامرة: «أحبّك سلام أعشق فيك رجولتي..». وبينما ماؤه ينساب ليروي عطشي، كان هو يخونني بعينيه المغلقتين معها. ربّما هذه هي المرّة الأولى التي أعرف بها رجلاً يخون عشيقته مع زوجته. أضحك في نفسي: أيّ خديعة هذه التي أحياها..؟!

أي عشق هذا؟! نهرته حتّى كاد ينتزعني معه، وهو يرتمي إلى جانبي، صرخت به: «إذا كنت تحبّها لماذا تخونها..؟».

غاص في نفسه، ثمّ قال باكياً: «لأنّني أريدها أن تكون كما هي ذاهبة لأن تكون..».

صمتت دمعته حتّى خلتها هي المذنبة لا هو..

آهٍ أي الرجال أنت وأيّ امرأة هي..؟!!

دخل عليّ تسبقه وروده الحمراء، كنت في مكتبي غارقة بين بريد لا يؤجّل واتّصالات الثرثرة المعتادة، وقف ببابي وهو يقول للسكرتيرة: «لديّ اجتماع هامّ مع السيدة منى، لو استعجلت قهوتنا، وتركت لنا مساحة من الهدوء ندرس مشروعنا». فاستجابت له وكأنّه الآمر بشأننا.

تأكّد من أنّ الباب أغلق، ودرس بعناية شديدة انعكاسات الضوء على زجاجه وبيني، ثمّ فتح الباب وطلب من السكرتيرة أن تغلق ستائر مكتبها، لأنّ الضوء يؤثّر في الصور التي سيعرضها. وأشار إلى شيء في جيبه. سارعت الشابّة عابرة مكتبها الطويل الذي يتّصل بجدار مكتبي عبر باب واسع، جهِدْتُ في اختيار رسومه الملوّنة الزجاجيّة، ووزّعتُ أرائكه الجلديّة ذات اللون الأبيض التي تزدان ببعض جلود النمور الورديّة، متناسبة ولوحات الفروسيّة المعلّقة على الجدران، وإحداها موقّعة باسم فيرنر رينش؛ أحد أشهر الرسّامين في هذا اللون الفني، الذي ينقلك إلى

عالم من الجمال حيث تستفزّك وقفتها ويأسرك شموخها، حتّى ولو كانت هذه الصور بداية بُعثرت في مكانها تجاوباً وتأكيداً على حبّ رياضة الفروسيّة، حيث كانت رمزاً للطاعة والولاء سابقاً، وأصبحت شعاراً للإخلاص والوفاء لاحقاً.

غاب ضوء الشمس عن المكتب وبدا للهدوء وقعه الخاصّ، مشى نحوي، أدارني من خلف مكتبي الذي يمتدّ نحو مترين طولاً ومتر عرضاً، مكسوٌّ بجلده البنّيّ، المزيّن بتقاطعات ذهبيّة، جثا على ركبته اليسرى، بينما تقدّمت نحو الكرسي قدمه اليمنى، ولامست ركبته ساقيّ العاريتين تقريباً، وزرع قبلاته بين يدي الاثنتين، وبلحظة بين الوعي والغياب، انتقلت لأفترش أوراق بريدي على مكتبي، وبينما اغتسلت أنا بقطرات عرقه المتساقط فوقي مطراً، كان هو يطفئ آخر تنهيداته المكتومة بحبّها.

سمعت صوت تهاوي حقيبة زوجته سلام على الأرض بعد أن شرّعت الباب وهي تناديني: «منى هل سمعت الخبر..؟ لقد مات السيد الرئيس». ثمّ ابتلعتها المفاجأة، كان فمها يتحرّك لكنّ صوتها غار في أعماقها، ولم أسمع منها أيّ كلمة. بعد ذلك غادرتني وغادرته تحمل حقائبَ من ذكريات وطعنة في روحها.

جورج زوج سلام استفاق منّي وصوت خطواتها يبتعد عنّا، حتّى أصبحت من الماضي، إلى أن سمعتُ أنّها كتبت مذكّراتها، وقد توقّعت أنّني بطلة من أبطالها، إلّا أنّني لم أكن في حياتها وبين سطورها، كما كتبت، أكثر من حفرة صرف صحّيّ وقعت هي خطأ في وحلها.

ويحكِ سلام..! ما وصفتني به تفوح رائحته منّي حتّى اليوم، ويوقظ داخلي كلّ خطاياي.. آهٍ أيّتها المذبوحة على يدي، كيف أمكنك أن تشقّي عبر نزيفك حياة جديدة بينما تتركيني على حافّة الخطيئة أتضوّر موتاً يتنفّس عاراً وقبحاً وصورة رجل ذهب ولم يعد..!

وطن بين راحٍ وغانية

صورة جديدة لحياتنا، وأمل سوّقناه بحِرفيّة عالية، رغم ما يشاع عن بدائيّاتنا في هذا العلم الواسع، لكنّ أحداً لن يستطيع أن ينكر إدارتنا لتلك الآمال وكأنّها بضاعة للبيع، ما إنْ تمكّنّا من توقيع العقود، واستراحت مؤخّراتنا على الكراسي، حتّى اكتشف الناس أيّ خديعة اشتروا..!

في حلب، حيث مركز النشاط الاقتصاديّ، كنتُ أتعمّق أكثر وأكثر بطبقتين نقيضتين تماماً، فبين العزيزيّة والشهباء ممرّ واحد هو الإنسانيّة التي تستباح، ويحيط بها حزام الفقر الذي لم يعرف شيء عنه وعن ناسه الواجمة وجوههم، والمطبوعة بوسم الإهمال والتهميش والتجهيل المتعمّد.

بالتأكيد «الزعيم الجديد» المُولع بهذه المدينة يجهل ما وراء تلك الأكوام الإسمنتية المبنيّة على شكل متاهات، لولا خبرة قاطنيها بأزقّتها الدائريّة وتداخلاتها العشوائية، لوقعوا في محظور دخول البيوت من غير أبوابها، وكثيراً ما كانت هذه الأبواب مجرّد أقمشة بالية تعلن حدود حرمة بيت عبدو، ليبدأ مقام السيّد الشيخ أبو الزهر، الذي يرقي، ويشفي، ويعيد الغريب، ويكشف الخيانة، ويستولد النساء، ويفكّ مسّ الشيطان، وينزل الشياطين التي أخذت من صبحية مطية لها.

كان يرى المدينة المولع بها من خلال عيون سليمان المتخصّص باكتشاف أهمّ بيوتات الطعام وغرائبها، بينما كانت عيون إياد ترصد له

حسن الصبايا والطرق الواصلة بينها وبين خبير السهرات رامي، حتى كاد الناس يتوهّمون أنّ مدينتهم هي العاصمة الحقيقيّة حسب طموحاتهم، فهي مركز نشاطاته المختلفة؛ من العاطفية حتّى البروتوكوليّة.

قادمة من البحر، هاربة من رطوبة عطّبت روحي، وقد تناثر الفقر على ملامح أهلي، وسكن بذاكرتنا، حتّى خلته لن ينجلي، لولا ما سمعته من صديقاتي عن شلّة «الزعيم» في حلب، وقدرتها على صنع المعجزات، وكلّ ما يتطلّبه الأمر إغواء وإغراء وبعض خبرة..

اخترتُ حلب مستقرّاً لي بداية الألفيّة الثالثة بُعيد لحظة انعتاقي من زوجي وكنت آنذاك في مطلع العشرينات من عمري. هذا الطلاق جعلني محظورة اجتماعيّاً حيث لا أمل في زواج قادم، ليس لأسباب تتعلّق بالجوانب الاجتماعيّة وحسب، بل لأنّ هزيمتي احتلّتني فترة طويلة، لم يحرّرني منها إلّا هذا الوقت الذي يربطني بالقلم والورقة وحياة تنبض بالمدينة الصاخبة، بين ملذّات أثريائها وجراح فقرائها..

كلّ ما أحمله شهادة جامعية، وجسد يحاكي فتيات الإعلانات، وشهية غير قابلة للإشباع للمال والسلطة والسرير.

أطلقت مخيّلتي الخصبة، وأنا أمرّ بينهم بمحاذاة نفق الذلّ لا أستطيع دخوله، ولا لجم لهفتي الجارفة إلى معرفة حيثيّاته، للوصول إلى ذلك القوس الذي يغريني بألوانه ورائحة سيجاره ورنين كؤوسه، بين العزيزيّة والشهباء القديمة ومزارع الأنس والسهر وتمرير الصفقات الكبرى.

بحثتُ عن نقطة واهنة أدخل من خلالها متسلّلة إلى عالمهم، حتّى وجدت عمار وفارس وشقيقته بين غيومهم الدخانية في أحد المقاهي. تقدّمت منهم ألقيت التحيّة عليهم، كان فارس يتوسّط شقيقته وعمّار، ابتسمت واعتذرت عن تطفّلي طالبة سيجارة، فدعاني للجلوس وسألني: «حوريّة من أعماق البحر..؟». مبتسمة: «نعم». ودخّان أرجيلته يعبق

بأنفي، خشيتُ أن يسحب دعوته، فسارعت للجلوس في الكرسي المقابل له.

تحمّلت أعباء جسيمة لرسم تعابير خجلٍ مصطنع على وجهي، قال لي: «اسمي عمّار». وعرّفني بهم، وبدأ حديثنا الذي انتهى بدعوة إلى سهرة شبّهتها آنذاك بكلمة السرّ التي فتحت لي مغارة علي بابا، لأكتشف لاحقاً أنّ ما بداخلها ليس كنزاً، وإنّما أكوام قذارة.

تطلّب الأمر منّي شراء فستان فاضح، وقضاء ساعات طويلة تحت أيدي متخصّصين بعلم التجميل والتدليك، راقبت حركات الموجودات لئلّا أكون غريبة بينهنّ، مع رغبتي بالاختلاف لتقع إشارة استفهامه عليّ، لكنّ خطّتي باءت بالفشل، لأنّ علي بابا لن يزور المغارة الليلة، وعليّ تجاوز أوّل امتحان لعبور نفق الذلّ، عبر ليلة ساخنة يمتحن فيها رامي مؤهّلاتي الجسديّة في ركنٍ، قال لي عنه، وهو يتلوّى نشوة، وأنا أنزف ندماً تحت جسده الذي يفوح عطراً ونساءً: «نورا أيّتها الفاتنة البحريّة، في هذا المكان يصاغ قدر هذا البلد بين راحٍ وغانية.. وعلى هذا السرير يغفو ملء الجفون مصير وطن..».

كان عليّ أن أتلوّى بين يديه هياماً، وبينما جسدي يرتجف تحت لمسات يديه، همستُ في أذنه: «أخشى أن أتعلّق بكَ فأهوي على حطام قلبي..!».

سألني: «أحقّاً أنت لي..؟».

تركت يديّ تخبرانه بما لا أستطيع البوح به. سافرتُ بهما إلى أرجاء جسده، منتزعة مكاني في قلبه. وأنا أردّد في أعماقي عبارة الغاية تبرّر الوسيلة.

ما أقذرها من حكمة..!

رمى بنظرة نحوي، وهو يتجاوز سريري إلى الحمّام الأسطوريّ، وقد فاح منه غار الشهباء، وتعشّقني عميقاً: «يا غاليتي أنت لي.. هو لا يستحقّك..».

لا أعرف إن كان عليّ أن أفرح أم أحزن، فقد جعلني خاصّته، وسيصعب مروري إلى تلك الحلقة المستأثرة بقرارات ومصائر عباد الله. لكن عليّ الاعتراف أيضاً أنّه جنّبني مزيداً من اختبارات العبور في نفقهم الموبوء بهم. سأكون القريبة البعيدة حيث يلقي إليّ هذا العاشق الموتور حكاياته بين سرير وأريكة.

حنان الاسم الذهبيّ الذي كان يخفق قلب رامي وإياد وفيصل وغارو وعمّار وفارس وريمون لها ويلقي بظلال الغيرة على ألين وتالا وسرا وعلا وجوليا وشيرين وأخريات كثيرات، عند مغادرتها حيّ المارتيني برفقة رامي ليسلّمها أمانة مصونة ليد علي بابا المنتظَر، الذي اعتاد أن يرافقها إلى دمشق، بينما ترقبها عيون مدينة ألقت بكثير من أحلامها وطلباتها وشكواها بين يدي هذه الفاتنة السمراء حتّى عتبات السواد، النضرة كفاكهة الصيف على مائدة سلطان، الشهيّة حتّى الألم بعنقها الطويل وعينيها الواسعتين، وشعرها المسافر بين يدي حكيم الزمن، وطولها الفارع الذي كان يقوده إلى صالة الجلاء لاعباً، لا أعرف إن كان يلعب بالكرة أم برؤوس كانت تلعب به..

السيرُ إلى نفق الذلّ أصبح خياراً متاحاً لي، رغم أنّ رامي أقصاني بعيداً عن المغارة، زارعاً بنفسي كلّ أحلام ما بعد المرور به، فالقرارات الصعبة ليست حكراً على سيادته، هي أيضاً متوفّرة هنا في مراكز القرار الأمنيّ بحلب، وكلّ ما عليّ هو تحديد بوصلة قراري، سواء لجهة العمل الحكوميّ، أو لجهة الدخول بين سراديب سيّدات الاعمال، هذا القرار الذي كان من الصعب جدّاً السير إليه، لولا أن ما حلمت به، وهو سبب

إذعاني لسرير الذلّ من طموح سلطويّ، لابدّ أن يمرّ عبر حلقة العهر تلك. كان هذا الحلم قد تبدّد، فسرى حديث بين الوسط الإعلاميّ عن سيّدة ستنال لقباً لم يتحْ لامرأة من قبل، وخلت نفسي صاحبة هذا اللقب الجديد بحكم وعود رامي.

اسمها يتردّد في دمشق، وصداه يرنّ في حلب، فهمت من تعابيرهم المستغربة حولها، وبخاصّة سليمان المطّلع على كلّ تدابير الحكم فيها، أنّها خارج السيطرة لكلّ الحلقات، سواء هنا في حلب، حيث هو ورامي وإياد وغيرهم، أو هناك في دمشق حيث خالد وسامر وبهجت والمنقذ الاقتصاديّ وو..

تقوقعتُ على نفسي أبحث بين جلساتهم وخلف مكاتبهم عن مكان لي دون جدوى، تطاير حلمي، وقد خرج الأمر من يدي، حتى أولئك الحاكمين بأمر الله هنا، بدا الامر لهم في ثنايا المستحيل، قال لي أحدهم، وأنا أتمايل رقصاً في النادي الشهير: «أستطيع أن أمنحك صكّ ملكية هذه المدينة، لكن يصعب عليّ إزالة أثر غيرتك الحارقة من اسمها الذي يعبر عاصمتنا، لينام في مسامع رجال الأعمال هنا؛ الذين وصلوا جسر التواصل معها متجاوزين حضوري».

لم يعترفوا بي بعد ذلك إلاّ لوساطات تمتدّ بين خزائنهم المتخمة مالاً وسبائك ذهب، وتلك الغرف الأمنية السوداء.

حملت ذات يوم بيد حقيبة كادت توقعني أرضاً لثقلها، وبالأخرى طلباً مكتوباً بعناية، لتشييد مخالفة عمرانيّة صناعيّة، فردّ السيّد الضابط يومها: «أهذه عربون محبّة..؟».

ضحكت، قلت: «كلّنا عرابين محبّة..».

قال: «ومعها نسبة شراكة بخمسين بالـمِئة، ونصف ما تحملين لك».

بعد أن وزّع تلك الأوراق بعناية لتكسو جسدي الذي تعرّى على يديه بين أريكتين وطاولة، وحاجبه الأمين واقف ببابه، كثيراً ما لمحته يسترق النظر إلينا من ثقب الباب، حيث أنا بمواجهته مباشرة، وأنا أغادره لم أنسَ أن ألقي ببعض ما جنيته بين يدي فيصل، وهو يدرس ملامحي كأنّه سيدخل فيها امتحان ذاكرة..

لقد سرقت تلك المرأة مني حلمي، لتدفعني نحوهم سيّدة أعمال، كلّ تجارتها حتّى بجسدها رابحة غير مباركة، لقد صدّق حميدو عندما وعدني بملكية المدينة، وها هو كلّ ما فيها ومَن فيها يدور في فلكي، وتمرّ معاملاتهم بين مكتبه الأمنيّ هنا، وخزينة أملاكي هناك، ووداعاً لحلم سلطويّ أخذته منّي امرأة ريفيّة ينادونها بالمبدئيّة وهو ما كان يمكن أن يسدّ رمقي.

قال لي: «أوّل مليار طريقها صعب جدّاً، لكنّني سأرصفها لك».

فتحت فمي ثمّ ابتلعت دهشتي: «مليار..!!!»

- نعم. أتعرفين الصياد..؟
- الصاعد إلى كلّ المناصب.
- نعم.. سأروي لك حكايته..

لحمٌ مسحوق

لو لم أكن مبتورة الحلم، لسعدت الآن بما قاله لي عن هذا الرجل المتصاعد أهمّية يوماً بعد آخر، فهو من ابتدع أسلوباً جديداً للفساد وطوّره كمؤسّسة قابلة للإنتاج، بدأها حين كان موظّفاً في استراحة لكبار الزوّار، وقد صادف أن كان أحدهم رئيساً مخلوعاً لدولة عربيّة، أقنعه الصياد آنذاك بأن يطلب من مضيفه استثناء بتملّك أرض، ثمّ استثناء آخر ببناء فيلا تليق به، وباعتبار أنّ سوريا بلد مُحاصَر معاقب خارجياً، ومقيّد وممنوع ومحظور فيه كلّ شيء داخلياً، وكلّ السلع اللازمة لحياة الناس مرهونة بمؤسّسات الدولة ودكاكينها، فقد تطلّب الحصول على مواد للبناء استثناءات إضافية.

حاصل جمع ما استأثر به الصياد يساوي ما تحتاجه حلب كاملة لإعادة إعمارها من جديد، فقد أصبح بفعل تلك الطلبات الموقّعة دون حساب المحتكر الأساسيّ لهذه المواد التي تسمّى - حسب اقتصاد سورية - بالموادّ المقنّنة.

تجارة هذه المواد «الحديد، الإسمنت، السكّر، الأرز، الشاي...» لا تتطلّب إلّا ممراً آمناً بين المحتاجين لها من التجّار، وتوقيع مسؤول فاسد يكون فيه صديقنا الصياد هو الجسر الواصل بينهما، حتى أصيبت حساباته بالتخمة، وصار تصديرها لبلاد الخليج عبر شقيقه تجارة إضافية تحت مسمّى استثمارات سوريّة..

ضحك حميدو ويده تداعب ظهري، وتدفعني بشدّة الى احتضانه، وبينما هو منهمك في حلحلة الأزرار الخلفية لفستاني، كنت أنا أستعدّ

للانتقال بحلمي الى ثاني مليون دولار وقد بدت تباشيره تلوح فعلياً وفق دفاتر حساباتي المصرفيّة.

رامي يحدثني بين زيارة وأخرى متباعدة لزعيمنا الجديد عن تغيرات يشعر بها، ليتقدّم سليمان كأحد أهمّ أصدقائه بديلاً عنه، حتّى أنّه أحياناً لا يعرف بمروره إلى المدينة لولا أن المهندس الفنان يخبره بذلك.

يضحك رامي عندما أرسم بعيوني إشارة استفهام، ويتابع: «هذا المحظوظ ابن المحظية..». أضحك. يشير: «لا لا ليست هي المفعول به، وإنّما الميسرة للفاعل».

- أتقول ألغازاً..؟

يقول لي: «كلّنا يا حبيبتي مررنا بنفق الاختبارات الذي تصفينه بنفق الذلّ، لكن هو مرّت به والدته وحملته معها.. أهالي مدينتنا يعرفون القصّة كلّها..».

يقاطع رغبتي في التلصّص على قصصهم سائلاً: «وماذا عن أرصدتك..؟».

- تتصاعد كفواتير هواتفنا الخليويّة الجديدة يا صديقي.

ضحك وقال: «المال والسلطة يا معشوقتي..».

- ما أسهل الحياة بين رجال الصفوة والسطوة..! صفوة الحاكم وسطوة الحكم..

أدخلني خبر زيارة السيّدة التي ذاع صيتها حلب في ذلك الحلم الغائب عنّي. سألته عن برنامجها فقال: «هي برفقة مسؤول رفيع». أكلتني الغيرة، خلت أنّه انتزع بحديثه قلبي. سألته: «أيحبّها..؟!».

ضحك وضحك، وقال: «بفراستك أنت غداً احضري المناسبة وقرّري..».

مضت ليلة حالكة السواد أرسم فيها وجه هذه القادمة من قلب العدم، أتخيّل عيوناً خضراء زرقاء سوداء، طولاً فارعاً، مشية وئيدة، وثياباً فرنسية إنكليزية، خصراً يميل الى النحافة أكثر، ومبسماً تتواضع أمامه الكلمة وعطراً يشمّك..

آهٍ من تلك الليلة بين حلم ضاع وجسدٍ تشظّى..!

دخلت قاعة المؤتمر والناس حولي تتزاحم في المكان، أعدّ لي رجال الأمن مكاناً مميّزاً أستطيع من خلاله أن ألتهم بعيوني كلّ الحاضرين من دمشق برفقته، لم يكن الموكيت الأحمر الذي افترش الأرض ليعني لي شيئاً، لولا أنّني تخيّلتها بالأمس ترتديه، وهذه الكراسي التي ارتدت أغطيتها البيضاء، كأنّها الأكفان تنعيني بغير رجعة. جهدت للوصول إلى الصفوف الأولى، عابرة مسافة واسعة في فندق الشهباء، ابتسمت لي وجوه، بينما انشغلت أو تشاغلت عني وجوه أخرى، ربّما ممّن ظلمتهم بتوقيع لهذا أو استثناء لذاك، بمنع دخول بضاعة لمصلحة تاجر آخر، أو تجاهل طلب توسعة لمعمل، بينما يكون المعمل المنافس له قد أنهى أعماله بترخيص غير مطابق للمواصفات أضرّ بجيرانه، أو مطعم تفوح رائحته على المباني كلّها. إنجازات برعاية رجال الأمن الموقّرين القابضين على الأنفاس والجيوب.

بدأ الهتاف والتصفيق أطلّ بطوله الفارع، وابتسامته المواربة، إلى جانبه زوجته بقصّة شعرها القصيرة التي تحاكي فيها الليدي ديانا، وفستان هارب من محلّات الموضة الإيطالية. لمحت نظرات استياء لقصره وانحساره عن ركبتيها، في حين بدا آخرون سعداء، وهم يسرقون النظر إلى ساقيها، وهي توزّع ابتساماتها بين متلهّف للوصول إليها، ومستغرب لوجودها هنا إلى جانبه كزوجة من طائفة دينيّة مختلفة لطائفته. كاد هذا التعليق الهامس ينتزعني من رغبتي وراء حضوري هذا المكان، لينقلني إلى واقعة نتحدّث عنها بدواخلنا، لكنّها من المحرّمات إعلاميّاً وحزبيّاً وأمنيّاً، هي تكبر

داخلنا، وحالة الكبت تجعلها تتضخّم فينا، فتخرج عبر همسات من هذا النوع أو غيره..

حدّثني ضابط في الأمن عن شاب اعتقلوه، لأنه قال لصديقه: «إنّ العلوية في سورية يمثّلون أقلّية حاكمة..». ووصف لي كيف انتزع اعترافاته الوهميّة عن تنظيم سرّيّ هدفه النيل من أمن الدولة، ووقّعه على كلّ كلمة أرادها منه..

لم يكن الضرب فقط هو المتّبع في مثل هذه التحقيقات، لأنّهم يعتقدون أنّ أسرته كلّها موصومة بهذا الفكر الطائفيّ، لذلك جاؤوا بأخته ذات السبعة عشر ربيعاً بجسدها النضر، ووجهها الذي يغادر للتوّ طفولته، عرّوها تماماً من كلّ شيء، حتّى من خجلها، وعيونها المنكسرة لرؤية شقيقها ينظر إلى لحمها المسحوق تحت أجساد ثلاثة من العناصر الأمنية، خلعوا إنسانيّتهم قبل ألبستهم، وتقاذفوها فيما بينهم، وسوط جلاّد شقيقها ينزل على ظهره، ويصرخ به: «انظر يابن السافلة إلى ما نفعله بأختك..».

وقع الشابّ على كلّ الأوراق التي قدّمت إليه وغادرها الى المجهول. يضحك الضابط وهو يروي لي أنّ الشابّ حكم عليه بخمسة عشر عاماً من السجن، بينما تحوّلت أخته الى أهمّ عاهرة في البلاد.

أرأيت كيف نصنع كوادر مهمّة للمستقبل..؟!

بدأت مراسم الاحتفال وأنا أبحث عن حسناء أخرى ترافقه، كان في الصفّ الأوّل وزيرة أعرفها كما أعرف سراديب الفساد الواصلة إليها، عبر نائب ومحامٍ ذاع صيته هنا في حلب، وبين مكاتب المسؤولين بدمشق، كثيراً ما تفاخر بعلاقته المتميّزة مع رئيس الحكومة، وقدرته على نصرة الظالم على المظلوم، وفق تسعيرة باهظة الثمن لا يستطيع احتمالها إلّا مَن جمع ماله من حرام.

رأيتها ذات يوم تتحدّث عن الفساد في مؤسّساتها الإصلاحية عبر التلفزيون، وأذهلتني قدرتها الكلامية والخطابية، لكنّ أحداً من أصدقائي آنذاك لم يصدّقها، فلديهم وقائع على اشتراكها بصفقات كبرى مع رجال أعمال وصناعيّين منذ أن كانت خبيرة تقيّم القروض للمصارف، وضحكت عندما قال أحد الحضور: «أرجو ألا يكون للوزيرة كلمة فتجلدنا بخبرتها الدولية في صناعة قوانين محلّية، لكن تفصّلها حسب مصلحة من يدفع أكثر ويكذب أقلّ». هنا استدرت إليه أسأله أن يشرح، فقال: «كلّ أصحاب المعامل يلجؤون إليها، ويدفعون لها المطلوب كيلا تسجّل عمالتها بالتأمين، لكن هي والحقّ يقال تساعد من يدفع أكثر، ولكن من يكذب أقلّ بالنسبة لعدد عمّاله..».

لا غرابة أنّ حقوق الكثيرين من عمالنا في القطّاع الخاصّ تضيع، ويرميهم صاحب المعمل إلى الفقر والعوز بعد أن يكون قد استغلّ شبابهم وخبرتهم لسنوات طويلة، ثمّ يخرجون بلا ضمان أو تعويض يسدّ رمق أسرهم..

هدوء لافت بعد موجة تصفيق عاتية، تحرّك سيادته باتّجاه المايكرفون، وقف جميع الحضور حتّى أذن لهم بالجلوس من جديد، وأنا أبحث عنها، أين هي من عساها تكون بين هؤلاء..؟ أيّهنّ هي..؟ هذه..؟ لا... هذه ربما؟! تلك..؟ يا إلهي مَن هذه المرأة القبيحة..؟ لا لا يمكن أن تكون هي..!



سرير المتعة

نعم تذكّرتها فهذا الوجه الهارب من سعير جهنم، لا يمكن نسيانه أبداً، رغم المساحيق والمجوهرات التي تناديها: «أن اخلعيني عنك أيتها المتصابية في غير موعد، المتساقطة دمامة عليّ حتّى ولو زيّنوك بالوزارة والاستشارة..».

وزّعت أوامرها على الحضور من باب إعلان الوجود. قال أحد المغتربين الجالسين في المقعد الأماميّ منّي لصديقه المتألّم غربة: «لولا هذه الشمطاء لاستطعنا توطين الكثير من أموال المغتربين في بلدنا، لكنّها جهدت على زرع الفتنة بيننا وتقسيمنا، ووزّعت المناصب في بلاد الاغتراب حسب مصلحة جيبها العليا..».

ضحك من حوله وتابع يقول: «لكلّ مكان تسعيرة، وعلى كلّ توقيع منها ضريبة، في موسكو طردناها من الاجتماع عندما قالت لنا: «إنّ الزعيم يريد فلاناً وفلاناً ليمثّلوكم. يا صديقي مفسدة الحكم هنا هذه الديمقراطية.».

ضحك من كان يستمع إليه لولا أنّ جيوبه متخمة بمشاريع استثمارية، لكان واجه مصيراً أشدّ بشاعة من هذا الوجه الذي ينظر إليه ويستعيذ بالله.

البلد موبوء بهؤلاء. ردّ أحد الجالسين بين امرأة يغالبها العمر وتغلبه بإرادة الحياة، ورجل رسمت هزائم الدهر عليه ابتسامة ساخرة بكلّ ما كان يدور حوله، وبين الحين والآخر يحوقل ويستغفر ويستعيذ بالله من شرّ

يختبئ خلف الكلام المنمّق، كما وصفه. التفت إليه المتحدث الأوّل ليتابع هو كلامه: «بداية التهم الحزام العربي الذي ابتدعه جمال عبد الناصر أرض أجدادي، ثم تابع البعث قضم أملاكي تحت مسمّى التأميم تارة والاستملاك تارة أخرى، واليوم يتابعون مسيرتهم بقضم شركاتي تحت عنوان الشراكة الإجبارية مع رموزهم الاقتصادية».

عندما فتحوا أبواب البلد ولو مواربة من خلال قانون الاستثمار وتعديلاته، حملني حلمي القديم إلى حزم حقائب ذكرياتي والعودة الى دياري، آملاً أن تتّسع لنا بعد أن ضاقت طويلاً بنا.. لكن يا عزيزي ذنب الكلب...

همهمت المرأة بكلمات مبهمة، لم أسمعها بداية، لكن بعد ذلك حرّكوا الكراسي ليصبحوا أقرب إلى بعضهم، الصياد كان شريكاً إجباريّاً لكلّ راغب بالاستثمار في حلب، تماماً كحال المنقذ الاقتصاديّ في دمشق. لقد شارك طبيبا في أكبر مشروع طبّي، وكل مادفعه الصياد في هذه الشراكة هو توقيعه على العقد، وبعد ذلك استولى على كامل الأرض، ليغادر الطبيب إلى لندن دون رجعة متحسّراً على أمواله وأحلامه.

يا ترى من هو الشريك السحريّ بعد كلّ هذه الخطابات عن الشراكة والاستثمار..؟ هل هو أحد الجالسين على المنصّة حول الزعيم..؟!

ردّ عليها أحدهما بقوله: قبل الزعيم كانت خياراتنا بانتقاء شركاء أوسع، فمجلس الوزراء أيضاً كان لديه توجيهات، حتى صغار الموظّفين كأمين السرّ عمران، يجب أن يمرّ طلبنا عبر جيبه، أو تمرّ نساؤنا عبر جلسات عهره وقوادته.. الله يرحمنا من زمن الكفار أولئك ليتهم جعلوه ينتحر مع معلّمه.

تنبّه الثلاثة لمحاولة أحد المندسّين بين الصفوف لاستراق السمع، فغيّروا موضوعهم وبدؤوا بثرثرات غير ذات معنى..

وأنا أبحث بين الوجوه وخلف الكلمات عمّن يعرف أين أجد ضالتي، أتعرّف إلى تلك المرأة التي وصفت بالحديدية، سمعت أحدهم يقول: «عليك بالذهاب إليها ستسمعك باهتمام، وتجهد على أن تجد لك حلاً». توسّعت حدقتا عيني فاتّبعته راجية الوصول إلى غايتي، شهدته يتحدّث الى امرأة غادرت طفولتها للتوّ..

بجسم نحيل كأنّه في سباق مع الجوع وامتلاء للأطراف كأنّه يتحداه، وشعر مسترسل أسود، وعيون تميل إلى الليل الحالك، وفم غادرته الكلمات مكرهة مربوعة الطول، حسنة الطلّة، عطرها حدائق ياسمين، لبست ثوباً أسود، تحيّرك أطواله المختلفة على ساقيها الرخاميّتين..

قابلته بابتسامة اطمئنان حتى غادرته علائم الارتباك ومذلّة الحاجة، وقف قبالتها طويلاً، ثمّ ربتت على كتفه، ودسّت بيده بطاقة صغيرة، وهزّت برأسها. مشى مودّعاً ليحلّ مكانه آخر. وددتُ أن أذهب إليها، وألقي بأسئلتي الحيرى حولها، لولا بعض خوف ولمعة حقد تتطاير من عيوني. أحاطني حميدو بذراعه في غفلة منّي فأشرت إليها: «هذه هي..؟!». ضحك متأفّفاً منّي: «تعالي سأعرّفك عليها».

علت يده كتفها الأيسر، ثمّ أبعد بها خصلات شعرها عن وجهها قال: «حسنائي.. هذه نورا سيّدة أعمال..».

ذهبت بأفكاري إلى مكتبه، شاهدتها بين يديه على تلك الأريكة السوداء، سمعت تأوّهاتها، ورأيت من خلف ثقب الباب عيون الحاجب..

لا أعرف لماذا انتزعت منها هيبتها، وكلّ الأساطير التي سمعتها حولها انتحرت على يده التي داعبت عنقها، شممت رائحة النفق النتن يغتال ياسمينها، شعرت براحة وأنا ألقي إليها يدي للسلام، وضعت يدها بها كحمامة نائمة، وابتسمت.

اسمها جرح سمعي وأوجع ذاكرتي. ليلى هي الفتاة ذات السبعة عشر عاماً؛ شقيقة الشابّ الذي تحدّث عن الأقلّية العلويّة، وحكم بالسجن. وددت لو أقدّم لها اعتذاري، أسفي.. أردت اغتياله بنظري. خاطبتها صامتة: «أيّتها المغتصبة روحاً وجسداً كيف لمثلك أن تمنح الأمل لمستغيث وملهوف..».

أدركت ليلى إلى أيّ الأسفار شردتُ، وكأنّها قرأت هول فاجعتي، قالت: «الحياة محطّات صعبة، لكنّها ممكنة العبور».

أشحت بنظري حتّى لا أنتهك خصوصيّتها أكثر، فطلبت منه ألا يفزعني بحكاياته المرعبة. تقدّمت نحوي وهمست: «كلّ منا اغتصبت بطريقة ما.. حتّى أرضنا المقدّسة».

ثمّ غادرت مكانها تحملني بدهشتي وأسفي، وأستمرّ في البحث عن امرأتي المعروفة المجهولة..

ليلى التي تقاذف جسدها ثلاثة من رجال الأمن على مرأى ناظري شقيقها، وسال دمها على أرض مدنّسة بالتعذيب والقهر والقتلة، كيف أصبحت الملاذ للملهوف ومستغيث وطالب حاجة..؟!

لم تكن الإجابة عن الأسئلة صعبة. ببساطة حوّلت جسدها المسحوق بوحشيّتهم إلى سكّين تمزّق رغباتهم وتنتزع بها توقيعاً هنا وموافقة هناك، ولأنّها فهمت حقيقة غرائزيّتهم الحيوانية حتى البشاعة، وضعت قيدها على بؤرة ذكورتهم، ومشت بهم إلى لحظات تفجّر إنسانيتها، لخدمة غير مأجورة لصاحب حقّ، ولتسيير شؤون الناس مروراً بشأنها لبناء إمبراطورية مالها.

أمران لا يمكن إنكارهما في مملكة هذه الحسناء التي تتلوّى أنوثة، جنون سيطرة الشهوة وألق إدارة الدولة فوق سرير المتعة.

لم تنسَ أبداً أنّ أهمّ مرحلة في انتزاع إنسانيتها وشقيقها، لم تكن حالة الاغتصاب الجماعيّ التي تعرّضت لها أمام أعينه الغارقة بذلّها حتى الاستسلام، ولا بمشهد قتل والديهما اللذين تشبّثا بجسد ابنتهما في محاولة فاشلة لإنقاذها، كلّفت العناصر الأمنية طلقتين في رأسيهما. بينما هي تتملّص من بين أيديهم القذرة لتعانق جثة والدها التي آثرت أن تكتب رفضها لاعتقال ابنتها بالدم، وشهادة وفاة مزوّرة الوقائع والحجّة، بينما كان أحد رجال الأمن يعرّي جثة والدها ويدنّسها ببوله، ويقول منتشياً: «هذا حكم الاعتراض على ديمقراطيتنا..». كان كلّ ذلك محتملاً أمام هول الفاجعة حين قال الضابط لشقيقها: «ما رأيك لو أجبرناك الآن على ممارسة الجنس مع هذا الجسد الرائع لشقيقتك..؟!». وطلب منه أن يخلع ملابسه، فانحنت على قدميه تقبّلهما متوسّلة: «إلّا هذه يا سيدي». جرّوه إليها، طلبوا منه أن يُقبل على ثديها، تمنّت لحظتها أن ينزف جرحها حتّى الموت، أو أن يستدير أيمن لينتزع بأسنانه حنجرتها معلناً موتها. غابت عن الوعي، أغمض عينيه، والسياط تأكل جسده، ويصرخ: «لن أفعل». وصوت قهقهات رجال الأمن يمزّق ذاكرتها، كما بكارتها، حتى دخل عليهم ضابط أسمر اللون برأس كبير، متوسّط القامة، كرشه يمتدّ أمامه، وقف له الجميع وحيّوه.

قالت لي ليلى: «طبع نظراته على جسدي العاري، أظنّه حفظها في ذاكرته. همس له الضابط الصغير الذي ترك مكانه خلف المكتب شيئاً ما، ثمّ أشار إليّ أن آتيه حيث استدار بكرسيّه. سألني عن عمري، قلت له: سبعة عشر عاماً. رفع منديلاً من علبة محارم كنار الشهيرة، ومسح بها

نـزيز جروحـي، ثمّ صرخ بهـم: أيّهـا الأوغـاد هـذه الفاكهـة لا تستحقّونها، اذهبوا بها إلى الحمّام وأدخلوها إلى غرفتي الخاصّة».

كلّ ما يمكن أن أتوقّعه، أسهل ممّا رسم لي قبل دقائق، خرجت وأنا أسمع وقع السياط على جسد أخي الذي عرفت لاحقاً أنّه أجبر على ممارسة الجنس مع مئات السجناء متبادلاً معهم دور الفاعل والمفعول به. نعم هي لحظة فارقة، بمجرّد العودة لها، أتحوّل فيها إلى لبوة شرسة، تريد انتزاع الحياة منهم، وتفجير أوردتهم على قارعة الطريق.

ولم تعد منـذ ذلـك الـزمن إلى قيـد الإنسـانية، حسـب روايتهـا، إلّا لحظـات تُفـرح فيهـا طالـب حـقّ بعودتـه، وإن كـان فـوق سـريرها الـذي يضـمّها كجثّـة بـلا روح مـع مـا يـدعى رجـل سـلطة يأتيهـا بشـهوانيّته ووحشيّته وحيوانيّته وفحولته، ووحدها الرجولة تغيب عنه، إلاّ واحداً أتاها متلهّفاً لجسد ألق، وعندما حطّ رحاه على سريرها يستمع إلى حكايتها ضـمّها مودّعـاً، وقد لملم ما تبقّى له من قدرة على ابتلاع الذلّ وبقايا رجولة غائرة في نفسه، ورحل تاركاً بعض دمعه وبطاقة تعريفية جمع فيها ما استطاع من مناصب، وأرقام هواتف، وشيك موقّعٍ بأمل عودته، لم تصرفه قطّ..

أيّ ابتداع لأنواع القهر والذلّ تسجّلون في تاريخكم..!

ولم ألتقِ بسيّدة بحثت عنها بين وجوه بشعة بأفعالها ووجوه مسودّة بخنوعهـا، وأخـرى تبحـث عـن لحظـة انعتـاق مجهولـة الزمـان والمكـان والحاضنة..

معابر ومقابر

لا أعرف كيف لكتبنا المدرسية أن تنتشلنا من واقعنا المأساوي لتبني ما تدعيه انسان الحضارات فكيف لمواطن ممزق على معابر الذل المطحون بلقمة عيشه، والمغيب من مخططات المنقذ الاقتصادي ومن يدور في فلكه المتوسع شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، تارة بهمجيّة خيريّة، وأخرى بشراكة وهمية، وثالثة بمشاريع أهمّ منتجاتها رؤوس محنّطة بالهوان، وأسماء مغمورة تصدّر للعوام، وصفحات إعلامية تحذّرك أنّك تحت الرقابة بكاميرا هاتفك الخليويّ؛ الذي أنت رهن اعتقاله الشهريّ بفاتورة تأكل ربع دخلك، لتشبع فيه رغبة الربح الفاحش، وتمنحه صك عبوديته كيف لهذا الانسان أن يحافظ على صمته طويلاً؟!..

ممنوع عليك التفكير إلّا من خلاله وله، وممنوع عليك الاستثمار إلّا موقعاً على شراكته، أو معلناً ولاءك عبر نفق موصول بأقبية الأمن، والتهمة محوكة على القياس حتّى إعلان الاستسلام.

أقصى ما يستطيعه مستثمر محلّيّ أو أجنبيّ أمام هذا الشره لابتلاع أفكارهم، وتجيير نجاحاتهم، الولوج الى شراكات معه هي أشبه ما تكون بشراكة سرير بين غاصب ومُغتصَب.

حتّى تستطيع العيش في هذه الرقعة من العالم، عليك أن ترضى بشراكة من هذا النوع، وتمارس دور المُغتصَب المكسور الجناح، والراضي بما قُسِّم له..

ما أبشعها من حياة..!

أسأل نفسي كثيراً، كيف رضينا بهذا النصيب، ومَن منحهم هذا الحقّ ليكونوا وكلاء عنّا في كلّ شيء، حتّى بما يدور فوق وتحت أغطية أسرّتنا، ومن علينا أن نشارك بها..

نعم أذكر كيف أنّ أحدَ أفراد الأسرة ويُلقّب بالشيخ، رأى امرأة حسناء في فندق الميريديان باللاذقية، وعندما أرسل لها كأس ويسكي ضيافة أمام زوجها الذي كان يحتفل بأيّامه الأولى من شهر عسله، فاعتذر زوجها بكلّ أدب للنادل الذي حمل الكأس. فما كان من الشيخ إلّا أن أخذ الكأس وتوجّه بها نحو طاولة الزوجين، وأمر الزوجة بالشرب، ثمّ انتزعها من يدها وأحاطها بذراعه، بينما جسدها يرتجف، وعيونها تغور في محاجرها، وصوت قلب زوجها الدامي يسكن مسامعها. ودفعها إلى زوجها، قائلاً له: «هذه المرّة أكتفي بهذا وغداً أنتم ضيوفي على العشاء..».

هزّ الرجل رأسه موافقاً تحرقه رجولته، وسرعان ما غادر المكان تاركاً حقائبه في غرفة الفندق، متوجّهاً إلى أوّل حدود تخرجه من دائرة الذعر والخوف وانتهاك الأعراض..

غادر الزوجان بعدها البلاد إلى غير رجعة، ودون أن يتركا حتّى رسالة وداع..

حكايات الذلّ

كانت ليلتها طويلة وهي تروي حكايات الذلّ التي عايشها جسدها العاري أمامه، كأنّه بوح السلسبيل تقدّم إليها راغباً، لكن كلماتها اغتالت تلك الشهوة، وذكّرته بماضٍ غارق بعلاماته على جسده، هي تشبهه حسناً، إلّا أن توقيعهم الغائر فيه وبها شاهد على أنّ جسديهما مرّا من نفقهم المظلم، وأنّ كلّاً منهما تعثر على طريقته داخله، هو في غرفة تعذيب خاصة، وهي على سرير ذلّ خاصّ لأحمق مهووس بتعذيب الشريك، لكنها اعتبرته دائماً يمثل رحمة إلهية كبرى أمام فاجعة إقبال شقيقها عليها عارياً.

تضحك وتتابع حديثها: «لقد أخذني معتقلة الى فراشه، عالج جروحي أيّاماً، لكنني فوجئت به فوق السرير يحمل سكّينا ويحزّها كلّ مرة أسفل بطني، ويبدأ بمصّ دمي وجسدي يستغيث ألماً، وكلّ يوم يكون الجرح فوق الجرح الى أن اشتعلت الحمّى بجسدي، فأطلق سراحي إلى مشفى مجاور له، وألزمني الصمت عن سبب جرحي مقابل رعاية وحماية قادتك أنت اليوم إلى فراشي..».

تأمّلها حتّى غاص بأعماقها، وفوق سريرها ألقى بحمولة عمرها نحو عشرين سنة، غلّفها بصمته وابتسامة لا يدرك أحد وجهتها، بدأت بالسؤال الأكثر عمقاً وألماً: لماذا يلقبونك بالدكتور؟!. ضحك، قال: «لأنّني قبل أن أكون ضابطاً في الجيش كنت طالب طب». أعانته دمعته الهاربة من ماضيه على ابتلاع غصّته.

أدخل وجهه في تلافيف شرشفها الحريري الذي التفّ حول جسدها المتواري عن عريه، تلمّست ظهره بيدها التي انزلقت رويداً رويداً إلى ذلك الجرح المتمرّد على جمال جسده. طلب منها أن تغرز أظافرها به بينما كان وجهه قد واجه نظراتها الغارقة بالأسئلة، وضع يده خلف رأسها ثمّ دفعه لتلثم بشفاهها وجهه نزولاً الى صدره، واستلقى بين يديها كطفل هارب من سواد ليل، واستسلم للبكاء الصامت بحضرة شهقات الذكريات المريرة وبدأ الحكاية:

صباح شتويّ بارد، أصوات تختلط بين صوت الرعد وأصوات أبواب متروكة للريح مفتوحة دون قصد أوصالي ترتعد برداً خوفاً من مجهول لم أدرك أنّه حلّ بي إلا وأنا بين أيديهم تتقاذفني أرجلهم تارة، وأخمص بنادقهم تارة أخرى، وأنا أدور داخل نفسي وبينهم أتلمّس طريقي عبر نزيف دم من سبقني وأسير على هدي رائحة عرق ودماء المعتقلين.

وجدتُ نفسي بين عشرات بلحى طويلة يتضرّعون إلى الله وقد رسمت كلّ ألوان العذابات على أجسادهم، رمى بجسدي الذي أشكّ أنّه صار مني بينهم، وقد تملّكني شعور لساعات، ربّما أنّني انتقلت إلى الحياة الثانية بينما صحوت وفي فمي قطعة قماش مبلّلة، تختزن كلّ ما استطاعوا أن يجمعوه من مياه الشرب من خوابيهم الفارغة، ليرطّبوا بها لساني الجافّ المتدلّي من فمي كقطعة خشبية. نطقت مجهداً الشهادتين وأنا بظنّي أنّي بين يدي الله وتساءلت لماذا يكون رجال الله بذقن طويلة وجسد خارج للتوّ من جهنّم. لا شكّ أنّها ملائكة الجحيم ترعبني. ضاقت ذاكرتي فلم تسعفني بأسمائها ولكن ماذا عن القبر وملكيه، هل تجاوزت ذلك كلّه عابراً إلى السماء ناسياً عذابات ما قبله، وضحكت ساخراً من نفسي، ومن كلّ اعتقاداتي وكيف كنت أتبجّح بكفري. يا الله ها أنت تسامحني

وتسكنني بين قومك الصالح في جنّاته، لكن لماذا تسيل دماؤهم ومن لكَم وجوهم..؟ أهي فسحة التطهير من دنس إغواء الحياة الفانية..؟

كان همسهم مفهوماً تماماً لي، لابدّ أنّ لغة الجنّة سوريّة. رفعني أحدهم الى جوار جدار، بينما تولّى آخرون تلاوة آيات من القرآن الكريم، وهم يوسّدون أطرافي، صاح أحدهم: «إنّه يتنفّس». وعلت أصوات تحمد الله وتشكر نعمه الكثيرة عليهم. وددت لو أسألهم عن أيّها في تلك الحياة الدنيوية التي عرفنا فيها كلّ أنواع القهر والعذابات، أم انّهم يقصدون هذه الجنّة التي وعدهم الله بها؟ لعلّها الثانية هي الأصحّ.

قال أحدهم: «من أيّ الجماعات تعتقدونه..؟ لا شك أنّه منّا. لكن أنا لم ألتقه سابقاً».

ردّ عليه آخر: «هذا التعذيب الذي طاله يؤكّد انتماءه لنا. لندعُ له بالسلامة من بين أيديهم، في شبابه إشراقة المستقبل».

الأصوات الهادرة بالتكبير والتسبيح خبَت فجأة، وحدها وقع أقدام تقترب منّي، وتزيح كلّ مَن كان حولي بعيداً، صوته المُرعب مزّق طمأنينة المكان وهو يهدّد ويتوعّد: «انتباه.. هذا الحقير حشرة لابدّ أن نذيقها فنون التعذيب بكلّ إبداعاته، عندما يصحو ممنوع الاقتراب منه».

سمعت هسيس حركاتهم الزاحفة إلى الوراء، وتساءلت: «لماذا غاب التكبير في حضرة هؤلاء، وأيقنت أنّني وجدت بالخطأ بينهم، أو أنّ الله أراد أن يعرّفني كيف تكون الحال للمؤمنين الأتقياء، وكيف أنبذ أنا باعتقاداتي الواهمة بعيداً عن فرائضه».

اقترب صوت أقدامهم منّي أكثر وأكثر، حملني أربعة منهم من أطرافي، عُلّقت بشيء ما في السقف وأصبحت سابحاً في السماء إلا أسفل ظهري، لا أعرف لماذا أبقوه يلامس الأرض جيئة وذهاباً حتّى استيقظت من موتي أصرخ جراحي الملتهبة، وأستغيث بأهل الجنّة والنار،

لم يقترب منّي أحد، وبقيت أجترّ وجعي أيّاماً، وربما أكثر، حتّى عرفت أنّني ومن معي سواسية في سعيرهم المتّقد حقداً وغلّاً.

طلبوا من أحدهم أن ينال منّي، وقد رموا بي أرضاً بعد علاج جراح ظهري، تصوّرت أنّه سيموت دون تنفيذ الأمر، لكنّه سارع إليّ يعتليني من خلفي، وهو يغمغم: «اعذرني.. اعذرني.. إن لم افعلها بك سيفتعلون بي..». لأوّل مرة أعرف أنّ للرجال بكارات تُهتك، وتسيل أوجاع ذلّهم وانتقاص رجولتهم وانكسار كرامتهم، لحظة يسيل في جسدي ماء رفيقي في مهجع التعذيب. ولم أعرف منذ ذلك اليوم معنى أن أكون رجلاً.

كنت أسأل نفسي: «هل أفعلها لو طلب منّي، فيتّسع صدري لحقد وافد على الجميع؛ الجلاّد والسوط والآمر لهما. وتلك القذارة تتسرّب في مؤخّرتي، كنت أصرخ لأمزّق بداخلي كلّ شيء حتّى نفسي، نعم لقد فضّوا بكارة إنسانيّتي، فأصبحت الأخيرة مومساً مثلك تجلس مع من يريدها بمقابل».

لم تكن تلك الحادثة هي المرّة الوحيدة، لكنّها كانت بداية موت إنسانيّتي التي حاولت أن أستعيدها من أجل امرأة أحببتها، فاكتشفت متأخّراً أنّها ابنة جلاّدي، ومن بين يديها تسرّبوا إليّ ليعيدوا سحق كرامتي، وآخر ما تبقّى منّي كرجل علم وجد في الطبّ ضالّته، وكان على حافّة إنسانيته التي انهارت مع كلّ ما بداخلي..

لقد أقسم والدها، وهو يتأمّلني بمكتبه، أن ينسيني اسمي وفعل، لم يعتقلني أنا، بل اعتقل إنسانيّتي، ثمّ أخرجني للحياة أكره كلّ تفاصيلها، بدءاً منّي إلى ذلك الحلم الذي جمعني بحبيبة ليالي معدودة، كانت فيها منارتي وكنت لها جواباً على كلّ رغبة تنبعث في خلاياها، رجّعت فيها رجولتي وكنت أظنّها رحلت دون عودة، وتعلّمت عبر جسدها

كيف أكتب الحبّ قبلات وشعراً، وكيف أستنهض فيها وجع إنسانيتها. كادت تصبح منّي وكدت أزرع فيها نفسي لتنبت إنساناً من جديد.

كان لقاء أخيراً في حديقة عامّة، وزّعت يومها قبلاتي على جسدها بين عين ترقب المارة والجالسين، وأخرى تبحث عن ردّات فعلها، وتضحك سرّاً لهول نشوتها وقدرتها على أن تكون امرأة بين يدي وحدي، وقد تعوّدت ألّا تكون أدمنت عادة القطة في مواسم العطاش للجنس، وأصبحت على هاتين اليدين امرأة من حبّ ونشوة، غادرتها وصوت فاجعتها يسكنني وهي تستنجد بوالدها ولا تعرف أنّه قاتلها وغريمي.

بين دخولي بداية إليه ذليلاً أسحب ارتعادة أوصالي مهابة أن يتكرر اغتصابي وخروجي من مكتبه، حيث خلعت إنسانيتي وارتديت قذارة وسلكت الطريق الصواب إلى المنصب والسلطة.. عام واحد نجحت خلاله بالعبور الآمن من كلّ اختبارات الولاء والطاعة والإجرام، قتلت أربعة من زملائي المُعتقلين، واغتصبني عشرات من ضبّاط الأمن، وسال لعاب أحد القادة الأمنيّين عندما رآني عارياً، فطلب منّي أن أكون خاصّته حتّى ما عاد يرفض لي طلباً، وكان وساطتي إلى سجّاني ووالد محبوبتي.

هذه حكايتي وهي لا تختلف كثيراً عن حكايات من تجالسينهم إمّا فاعلين أو مفعولاً بهم.

ضحك ثمّ بكى. جمعت ليلى شجاعتها لتعانقه من جديد، وتهمس بقبلاتها: «ابقَ معي قليلاً أستعيدك رجلاً بين ذراعيَّ وأداوي جراح ذكورتك المغتالة على أيدي السفهاء منهم».

ضمّها إليه وقال: «لا تستثني أحداً.. كلّهم سفهاء، وأنا منهم».

تابعت طريق قبلاتها حتّى وضعت رأسها في حضنه، فاستشعر برغبته تتملّكه، أراد أن يختبرها من جديد، لكن خوفه من الخذلان أمام جسدها الصارخ أنوثة ورغبة هزمه، فغادرها سريعاً يلملم ثيابه المتناثرة في أرجاء الغرفة وآثامه وخيباته.

لم تدرك ليلى إذا كان هروبه منها أم من لحظة إنسانيته التي استرجع ذكراها، ليعود وينغمس من جديد بقذارات السلطة وموبقاتها، فهو المشهود له بأكثرهم عنفاً وأشدّهم اليوم نفوذاً وسطوة، وحكايات أقبيته المتباعدة على مساحة البلاد، يتناقلها زوّاره كحكايات شهرزاد، وله شهادات براءة اختراع في أساليب الإرضاخ وانتزاع الاعترافات. لو كنت زائرته لاكتفيت منه بالتلويح، بما يمكن أن يبتدع، لأوقع على كلّ جرائم التاريخ بأنّني الفاعلة والمذنبة والمحرّضة.

أيّ قدر يقودنا الى أعماق وحشيّتنا منتزعين ملامح آدميّتنا..!

أحقاً كان اغتصابه هو السبب في نقمته على الجميع، لذلك أبدع في دور الـمُغتصِب، ليهرب منه إلى أوّل طريق إحساسه بالسلطة، حيث كان ينتزع كرامة من يهينه قبل أن يولج كرهاً إلى داخله..؟!

لولا أنّني لمست صدق مشاعره، لتوهّمت حقّاً مدى تعلّقه باللواطة كفعل جنسيّ لا حالة تعذيب قسريّ..!

ربما كان الفقر المدقع سبباً لانزلاقه في هاوية السلطة، رغم أنّه كان سابقاً على الضفّة النقيضة لها، ينادي بشعارات المساواة والعدالة، ويكيل للحكّام لائحة اتّهامات، لو مثلوا بها أمام محكمة عادلة، لَكان واقع الحال سياسياً واقتصادياً قد تطهّر من رجسهم إلى الأبد.

من من ابن البواب إلى طالب بكلية الطب، نقلة نوعية كثيراً ما كانت والدته تنتشي فرحاً بإنجازها الكبير، وقدرتها على أن توفّر له فرصة تعليم محترمة، بينما أولاد من تخدمهم يفشلون عاماً بعد آخر، وهو يراكم

صور قهرهم له، ويرسم بداخله سيناريوهات انتقامه للحظات العطف التي يمدّونه بها بثيابهم وبقايا طعامهم. هو الرفض ليس للسلوك وإنما للأدوار وموقعه فيها، لذلك الصور التي تنقل عن أساليب استخدامه العنف على أبناء العائلات الميسورة تقشعرّ لها الأبدان، هو يفرغ حقده القديم عليهم ويذيقهم من عذابات ذاكرته المأزومة بنعمهم. كلّ ثريّ صورة من أولاد البناء الذي كان فيه مجرّد ابن البواب الفقير الذي يستحقّ الصدقة والعطف.

مارس عماد تلذّذه باستعباد الناس وذلّهم ليس في سورية وحسب، إنما امتدّت سلطته إلى بلد مجاور يتحدّث سكانه عن ويلات أذاقهم إيّاها لمجرد أنهم أولاد عائلات حاكمة لم يعرفوا الفاقة يوماً لكنّهم على يديه عرفوا ما هو أبشع منها بكثير.

ما أبسط ألم الجوع أمام ألم هدر الكرامات..!

لكن سؤالاً ملحاً يسكنني لماذا لم يجد للفقراء سبباً للرحمة من أشكال وتنوّع امتهان كراماتهم على يديه. كلّما زادت شكاوى الناس حول أدائه وظلمه ارتفع شأنه عالياً يوماً بعد آخر، حتّى بدأ منافسوه يمتدحونه خشية أن يزداد مقاماً أرفع ممّا هو عليه.

قال لي أحدهم: «ليس هناك من قدّم فروض طاعة أكثر منه فلم يتوانَ حتّى عن قتل أقرب المقرّبين له قرباناً لولائه غير المحدود».

ورغم أنّ والد منى اللواء أبو حيدر الذي أطلق سراحه لم يقنع يوماً بولائه إلّا أنّه أيضاً قدّم له فروض الطاعة، لكنها لم تكن كافية ليتجنّب انتقام عماد منه، فقد أوغر الأخير صدر الزعيم عليه حتّى حوّله إلى جليس بيته، يرعى مصالح حفيده الوسيم غيث ذي الوجه الملائكيّ. كما قال لي أحد عابري سريري من السادة المسؤولين.



صخبُ الماضي

ملامح غيث الملائكيّة تدخل الفرحة عميقاً في نفس والدته منى، التي ترى الدنيا من عينيه المتألّقتين تمرّداً. لم تغره حياة الرفاهية بالابتعاد عن زملائه المسحوقين ظلماً، كما كان يصفهم، وهو يعلن غضبه أمام جدّه على السياسات الاقتصادية التي تسحق كرامات الناس، وتغرقهم في متاهات الفقر، بحثاً عن لقمة العيش المغمّسة بالذلّ، ويسأل بعلوّ صوته: «وماذا بعد..؟».

يضحك جدّه المثقّف فرحاً بما مسّ حفيده من هوس الاشتراكيّة، وشعارات العدالة الاجتماعية التي تناقض سياسات الحكومة الحالية العاملة على لَبْرَلة الاقتصاد؛ والتي كثيراً ما كان يصفها بادّعاءات الكذب الاقتصاديّ المُدَرْدَر، نسبة الى مبتدعها السوريّ صاحب نظرية الانفتاح الاقتصاديّ على اقتصاد السوق، ويجمّل وقع هذا التوجه بردفه بكلمة الاجتماعيّ، التي تحوّلت الى إحدى أغنيات الساسة نحو نصف عقد أو يزيد.

وحدها منى تدرك حقيقة توجّهات ابنها التي تراها انتقلت إليه بالوراثة من والده، حتى كانت أحياناً تصرّح له بالقول: «إنّ هذا الشبل من ذاك الأسد». فيبتلع والدها تعليقها. فأيّ تشابه يجمع بين حفيده الذي يكاد يكون يسارياً حتى النخاع، ووالده المتسلّق على أكتاف السلطة، المنبري للدفاع عن سياسات اقتصاد السوق، وقوانين الانفتاح التي تُفصّل على مقاسه ومقاس المنقذ الاقتصاديّ، الذي كثيراً ما يفتح

أبواب الاستثمار لساعات، بينما يدخل هو وشركاؤه منها، ثمّ يوصدها خلفه بإحكام، وكأنّ التسرّب إلى ما بعدها خيانة وطنية لا تغتفر.

وأشدّ ما يستثيره غضباً، عندما تؤكّد له منى أنّ غيثاً يشبه بجماله والده، فيستعيد لا شعوريّاً ذكريات شابّ وسيم مرّ بمكتبه سجيناً ثمّ تحوّل لمخبرٍ إلى أن أضحى اليوم سيّدَ المكان، ويكتم غيظه خوفاً من أن تشعر منى أنه أخيراً فهم معنى كلامها الحقيقي حول نسب حفيده، ويرسم ابتسامة صفراء على وجهه متجاهلاً حديث ابنته.

تفرّغ للعناية بحفيده المتمرّد عليه دائماً، بينما حرم من مداعبة أولاد ابنه، بسبب طلاق تالا من حيدر، واستئثارها بالأولاد وحرمانهم من زيارة جدّهم المـُقال من عمله. لم يجرؤ على رفع دعوى ليحصل على حقّه المشروع بأحفاده، لأنّه يدرك بأنّها قادرة أن تقلب ميزان العدالة، وتجعل من رغباتها تحت القوس أحكاماً لا يأتيها الباطل أبداً. كان يعلم ما صنعت يده بكلّ مؤسّسات الدولة، وكيف جعل بؤر الفساد تلتهم مفاصلها حتى تكاد تتآكل وتنهار.

وهو ينظر من نافذة تطلّ على حديقة ملؤها ورود شامية، يفوح عبقها على المكان، وتحاصره أشجار الفاكهة، بينما تتدلّى ياسمينة دمشقية راسمة ابتسامة عميقة على وجهه، تأخذه الى ذكريات بعيدة، ووجع لايزال يحفر بعمق آهاته على وجوه عائلته جميعاً. يسأل نفسه كيف يمكن لرجل يزعم أنّه يعرف ما بين سطور دفتر طفل في أقاصي البلاد، أو ما يتهامس به حبيبان على قارعة طريق التقيا صدفة، أو حتّى ما همست به زوجة وزير غاضبة على سريرها الزوجيّ، بينما لم يدرك أنّ بيته يحترق على صفيح ساخن، وتنخره المؤامرات والخيانات، أتراها أحبّته حتّى لم تعد قادرة أن تسمح لي بمشاركته إيّاها فهربت به بعيداً واختارت الموت دونه..؟ أيّ حبّ عميق سكنها لتغامر بنا جميعاً دون حسابات لكلّ ما أستطيع أن

أعاقبها وأعاقبه، بل وأعاقب من همس بموضوعها سرّاً أو علانيّة..؟ ربما هو القدر الذي أراد ليدي أن تتلوّث بدمائها كما تلوّثت بدماء كثيرين من قبلها وبعدها. لا شكّ أنّ منى تدرك حقيقة مقتل والدتها، فهي لم تتلفّظ يوماً كلمة انتحار، ودائماً تغمرها دموعها كلّما شاهدتني أعبر أمام صورتها، وتحرقني بنظرات شكّها التي تقارب اليقين، أنّني قاتل أمّها.

بين أرصفة الحديقة ومساكب الزرع تتوزّع ذكريات نشأة غيث، هنا تدرّج في معرفة معالم الحياة ومشاهد جمالها، بعد أن غادر جدّاه لوالده العاصمة، وانضمّت منى وأمجد الى أبيها ليعيشوا معاً، وقد بدأت حكاية انتحار والدتها تغيب مع انتشار حكايات وحكايات لفضائح أشدّ غرابة بين المسؤولين، بينما ارتضى حيدر أن يعيش وحيداً بعد طلاقه من تالا؛ التي أصبحت واحدة من أهمّ سيّدات الأعمال المتنفّذات، بحكم صداقة مشبوهة بأحد الصناعيّين من أعضاء الحلقة الضيّقة لسيادته، رغم أنّ هذا الفراق لم يفضّ عرى الشراكة بين حيدر وشقيقها؛ اللذين يتبجّحان أمام الجميع بأنّهما أصلاً خادمان للمنقذ الاقتصاديّ، وخططه العظيمة في الاستيلاء على كامل مقدّرات البلد الاقتصادية، من زراعة وتجارة ونفط واتّصالات وسياحة.

ربما عماد هو عملي السيّئ الذي ردّ لي، فألوان العذاب التي تفنّنت في إلحاقها به تختصر كلّ ممارساتي، ومع ذلك لايزال السؤال حول المعجزة الكبيرة التي أوصلته إلى أحد أهم رجالات الأمن، ليكون وساطته تحيّرني.

هل حقاً استطعت بسياطي أن أنتزع حقده على السلطة ورجالاتها، أم أنّه القدر يبادل أدوارنا ليتحوّل من محكوم إلى حاكم؟ لماذا كلّما نظرت بوجه حفيدي تنبعث كلماته في وجهي، ويقف في مواجهتي، بينما أنا أعرّيه قطعة قطعة، وأتلذّذ بسحق رجولته بقدمي التي تدهس عضوه، حتّى تكاد صرخاته تشقّ عباب السماء استنجاداً، وكيف هربت أفكاره الحمقى لتسكن وجدان غيث حتى يناكفني بها يوماً بعد آخر..؟

ينتزعه غيث من تساؤلاته الحائرة، وهو يناديه: «جدّي أخذوا بالأمس صديقي من الجامعة. سيارة سوداء اختطفته. هذا رقمها..»

ينظر إليه، يرتسم مشهد شبيه بهذا مرّ به منذ أكثر من عقدين ونصف تقريباً، عندما مدّت منى يدها إليه برقم سيارة انتزعت حبيبها منها في وضح النهار أمام جامعتها.

رفعت نظري أتأمّل هذا الشابّ الملتاع على صديقه، ومنى تنظر الينا صامتة تراقب ردّة فعلي، تداركت ارتباك يدي وأنا أمسك بالورقة، وأقرأ رقماً حفظته لسنوات لسيّارة المهمّات الخاصّة القذرة، وددتُ لو أستطيع البوح له بما ينتظر صديقه من مآسٍ وفنون تعذيب، وربما تكون هي الرحلة الأخيرة.

تقدّمت منى نحوي سحبت الرقم من بين يدي، صرخت: «هذا الرقم أعرفه أعرفه.. آهٍ يا ولدي». وسالت دموعها واحترت بهذيانها. كلماتها مزيج من اتّهامات واعترافات وعويل، جلست أرضاً بينما غيث في ارتباكته يسأل: «ما الذي تعرفينه يا أمّي؟ أهو مَن أخذ صديقي من الجامعة؟ أتستطيعين الحديث إليه؟»».

غابت في بكائها، وغاب والدها في ذكرياته، عاد السؤال إليه: «ماذا ستفعل يا جدّي»».

ابتسم جدّه وابتلع خيبته، فالأمر بيد غريمه عماد، وربّما لن تنفع وساطته، لكن تحت إلحاح غيث ورجاء والدته، تبقى المحاولة مع مخاطرها خياره الوحيد.

غادر الحديقة متوجّهاً الى مكتبه داخل الفيلا مارّاً بسنوات ذكرياته، عبر لوحات فنّية هنا، وقطع أثرية هناك، كلّ واحدة لها قصّة فساد، وبعضها يقطر دماً لأبناء عائلات ثريّة أودعوا السجن، ليتمّ التفاوض على إطلاق سراحهم، مقابل أتاوة، يسمّيها هو هدية البراءة، واستوقفته

للحظات اللوحة الجدارية لرجال عراة، رأى في ملامح أحدهم وجه سائقه الذي فرّ مع زوجته، صاح من أعماقه: «ويحي أدفعت عشرات آلاف الدولارات ثمناً لشبيه عشيق زوجتي..».

غصّ بغيظه. كاد يفصم بضربته كفّه عن معصمه، فتح باب المكتب، تنشّق رائحة عطرها، توهّمها خلفه بطولها الفارع وخصرها النحيل، وبقايا وشم لم يفلح أطباء أوروبا من انتزاع أثره أسفل ذقنها، وكيف أغرقته بمراهم مكياجها، تسأله: «أين عماد؟ لماذا لم تخرجه لابنتك؟ لقد ذاب قلبها عليه ارحمها..».

يوصد خلفه الباب، يهمس في أذنها: لقد انتهى الامر، عماد مات، تصرّفي مع ابنتك على هذا النحو.

تضع يدها على فمها، تكتم أنينها وتغادره صابّة كلّ ما أوسعها قاموسها من شتائم عليه.

رفع سماعة الهاتف، وبصوت منكسر الرغبة طلب سيادة اللواء متمنّياً له بداية الصحة والسعادة ناقلاً له تهانيه بترقيته الجديدة وبثقة سيادته به ليكون في هذا المكان الذي يليق بأمثاله من الرجال الثقاة، ثم بكلمات خجولة من معانيها، قال له: «سيّارة المهمات الخاصة اختطفت شاباً من الجامعة، هو صديق لحفيدي، ونحن نتمنّى عليك المساعدة في إطلاق سراحه..».

أدخلت الكلمات اللواء عماد في قمع ماضيه الذي يهرب منه. صمت وصمت وصمت، ووحده صوت نفسه العميق مزّقه. بلع أبو حيدر ريقه الهارب منه، ثمّ قال: «أعرف أنّ الأمر قد يكون صعباً، لكنّه طيش شباب يا سيادة اللواء». كان عماد يقول في نفسه: «لو أنّه برّر له سابقاً فعلته التي لم يعرف حتّى اليوم ما هي بطيش شباب. أين يمكن أن يكون، سؤال لن يستطيع أحد الإجابة عنه أبداً، ولم يعرف لماذا شعر

بضرورة أن يلبّي له مطلب حفيده. سأله أن يمرّ غيث عليه ليأخذ معه صديقه متعهّداً ألّا يتكرّر سلوكه المسيء أبداً..».

أغلق سماعة الهاتف في حين انفتحت على مسامعه ذكريات مريرة، سألته منى بعد أن نقل رغبة اللواء عماد إلى حفيده: «كيف أمكنك أن تعرف جهة الاعتقال من رقم السيارة يا أبي..؟ أتذكر هذا الرقم..؟ كم أثقلت على مسامعك أسئلتي عنه وأنت تقول هؤلاء شباب ربما يعرفون بعضهم بعضاً..؟ أنسيت يا أبي دموع ليالٍ طوال غلّفت فيها أسئلتي التي ملّتني وأتعبتك..؟ أكنت تستطيع أن تعرف أين هو بهذه السهولة..؟». ثمّ صمتت واقتربت إليه، رفعت سمّاعة الهاتف، استعادت الرقم المطلوب، كان رقم مكتبه السابق، وعماد هو اسم اللواء الذي جلس مكانه، أغلقت السمّاعة وصرخت: «هو أنت الفاعل يا أبي. هو أنت».

بكت كما لم تبك سابقاً حتى وقعت أرضاً بين يديه، وهو يلملم جرح ماضيها: «يابنتي صار من الماضي». وفي قرارة نفسه كان الخوف يتلبّسه، ماذا لو عرفت أنّه هو مَن كلّمه وأنّه هو من حلّ محلّه، وأنّه هو مَن لا يريدها أن تعرفه.

من لا يريد أن تعرفه ولهذا تنكر لكنيته التي تعرفه بها واكتفى باسم أبيه كنسب له ولم يستطع أحد من ذلك اليوم أن يربط بينه وبين طالب الطب الحقير حسب وصفه.

انتعالُ رجل؟!

سار غيث في دهليز طويل ينتظره في صدره الدكتور فاروق؛ مدير مكتب جدّه سابقاً بترحاب ودود، طلب أن يمهله بعض الوقت، حتّى يخرج ضيوف سيادة اللواء. لا شيء تغيّر عمّا يعرفه سوى ترتيب البريد، الذي كان يتعالى إلى فوق رأس الجالس، خلف المكتب خرج جموع الضيوف يدعون لسيادته بالتوفيق، لم يكونوا سوريّين حسب لهجتهم. دخل غيث المكتب متوجّساً من صدق وعده، كان عماد يغوص بأوراقه، رفع رأسه لبرهة مرحّباً دون أن يتملّى منه، ثمّ عاد الى أوراقه، لكنّ شيئاً ما أعاده من جديد، ليلقي نظرة فاحصة امتلأت بدهشته: «مَن أنت..؟».

قال: «غيث أمجد حفيد...».

لم يسمع منه بعد ذلك أيّ كلمة، تفحّص ملامحه بعناية.

شيء ما وقع في نفسه، فهذا الوجه الجميل هزّه، للحظة شعر أنّه وقع ضحية شذوذه، فرغب به، ثمّ ما لبس أن استيقظ من قذارته سائلا أأنت حفيده؟؟؟. وتفحص معالم الشبه التي قد تجمعه بها بتلك المرأة التي استلوها من بين أضلعه مع وجه خبره بفرحه، واختلاط دموعه بكحله، وعبث قبلاته بمساحيقه، لم يجدها تركت منها أيّ شيء بملامح هذا الشابّ الوسيم.. اللهمّ إلّا لون بشرتها النضرة. سافر في ذكرياته معها، وهي تتحاشى السقوط فوق كراكيبه المتناثرة في غرفته القذرة، كما كانت تصفها، تلميحاً مرّة وتصريحاً أخرى، وتقول له: «لن آتيَ إلى هنا مرّة أخرى». ثمّ سرعان ما تتحايل عليه، لينسى مقولتها ويصطحبها بزيارة

جديدة إليها، تطلق فيها لرغباتها المجنونة شهواتها الجسديّة.. هنا تركت دبّوس شعر ماسّي، وهناك ربطة عنق وردية، ويضحك، أتراه أين ضاع فتصحّح له: «وكيف لا يضيع بين هذا الركام من اللاأشياء..؟ ماذا تفعل بها..؟». نعم لم تجده، ولبست فستانها وهي تمتم ماذا لو شعر أحد بأنني لا ألبس إلا هذا الفستان على جسدي وغادرت تقهقه ساخرة، وأمضيت ليلي أبحث عنه ولازلت أحتفظ به حتى اليوم.

لكن أتراه يشبه والده أم أنّه خلاصة حسن هاتين العائلتين معاً..؟!

عاد إلى الواقع، وصوت غيث المرتجف يسأله عن صديقه، نظر إليه مليّاً، سأله: «ما علاقتك بهذا الأزعر..؟».

ردّ: «صديقي، وهو شابّ محترم وصادق».

وقف عماد منتفضاً: «عندما أصفه بالأزعر، فهذا يعني أنّه أزعر، إلّا إذا أردت أن تكون إلى جانبه الآن».

- سيّدي أنا أعرفه جيّداً، هو صادق ومشهود له بذلك، ويريد الخير للبلد، ويعمل فعلياً من أجل ذلك. أرجوك ساعده..
- ألا تفهم ما أقوله.

ضغط بيده على زرّ فوق مكتبه، فدخل حاجبه ضارباً الأرض بقدمه، مع صرخة مدوّية: «حاضر سيدي». ارتجف لها قلب غيث. قال له: «خذوا هذا الشابّ إلى صديقه أحمد ليسمع منه اعترافاته بنفسه».

سرت معه كخروف إلى مذبحه نزلنا درجا رخاميّاً بداية، ثمّ ما إن بدأت الأدوار تحت الأرضية، حتّى تحوّل إلى إسمنتيّ، وجدران بلا لون معروف، اختلطت فيها دماء الزوّار وذكرياتهم. فتح له آخر باب زنزانة كانت بالقرب من الدرج الثالث تحت الأرض، مساحتها أقلّ من أن تتّسع لسرير فرديّ، لذلك لم يكن فيها إلّا صديقي، وفتحة تصريف لاستخدامات متعدّدة، ونافذة على الممرّ فوق بابها، ولعلّ رائحة لا تغادر

من تمرّ بأنفه أبداً. ما إن دخلت حتى أغلق الباب وكأنّه لا نية لفتحه أبداً، وقف أحمد مستنداً إلى الجدار رافعاً وجهاً يصعب تمييز ملامحه التي تلوّنت بدمه واحمرار وزرقة، وربّما كلّ ألوان الانعتاق من وحش استفرد به، فتح يديه مستقبلاً بين بكاء وارتشافة ابتسامة تخجل أن تغادر أسنانه المتكسّر بعضها، والمفقود معظمها، بينما تنهيدته ترتجف ضلوعه داخلها: «ماذا فعل بك هؤلاء القتلة..؟». صرخت بعلوّ صوتي.

ركض باتّجاهي، وضع يده على فمي، وقال هامساً: «لا تتحدّث.. يسمعوننا..».

بلعت كلماتي، وبقي فمي مفتوحاً راغباً في إجابة، أظنّني عرفتها، وقعت غارقاً ببكائي ومدركاً حجم بلائي، أنظر بترقّب العارف إلى باب أظنّه لا يسمعني..

شغله الأمر، أراد أن يعرف هذا التوق للحاق بغيث إلى زنزانة صديقه. رغبة به كرجل وسيم افتتن بجماله أم شوقاً لوالدته..؟ تساءل: «ما الذي يغلي داخل صدري..؟ ما هذا الوجه..؟ مَن تراه يشبه..؟ كأنّه خارج للتوّ من ماضيّ البعيد، تشدّني نظراته حتّى تكاد تعانقني. منى أيّتها الحبيبة كيف أنت..؟ مازالت نظراتك المعلّقة خلف رجل يذهب الى المجهول، تسكنني صرخاتك المذبوحة وأملك الزائف بوالدك.. آهٍ لو تدركين ما فعله بي وبك، وكيف انتزع منّي رائحة الرجولة تلك التي عشقتها، وكيف وزّع حقده مكان قبلاتك على جسدي، ومرّر فوقه ناراً ليطهّر بها بقايا ذكرياتي العالقة بين جسدي وبينك».

صرخ عماد محاولاً أن يسترجع بصوته عقدين ونصف من عمره: «أيّها القذر سأذيقك في حفيدك عذابات عمري».

وضع يده على مؤخّرته وبصق طعم الذلّ الذي تجرّعه طويلاً، وركض الى المرآة يتحسّس ملامح رجولة غارت عميقاً داخل نفسه، اقترب

مـن وجهـه المهـزوم أمامـه، مـدّ لسـانه محـاولاً أن يلعـق لحمـه وأخذتـه القشعريرة، عاد ليصرخ. جاءه حاجبه: «نعم سيدي».

- أرأيـت جسـده اللؤلـؤيّ..! أريـده دفـتراً يخطّ بـه جهـاز الأمـن مذكّراته عليه.. أريد أن أسمع أنين وجع عمره سبعة وعشرين عامـاً، ولا زال يحفـر بـذاكرتي صـرخات اسـتغاثته. يجـب أن يكون لها وقع نتعلّم منه معنى الاستغاثة.. الآن يا غيث أسترد بعض حقي من جدك بك الآن هي لك هي لك..

يغـادره الحاجـب مـذهولاً بحالـه ومشـفقاً علـى سـليل عائلـة سـتعرف للتوّ طعم أقبية الذلّ التي اخترعتها، لتكون نفق عبور لموت يقترب من كلّ متمرّد، ولو بحلم ليليّ على إراداتهم، أو عابث تناسى التكبير بولائه لهم قبل أن يرفع صلاته، أو يقبل على أهل بيته، أو يفتح باسم الربّ محلّ رزقه.

استوقفه مدير المكتب القلق بسؤاله الذي لا يحتاج لأكثر من تمعّن في انكسارة نظرته، تمنّى لو يستطيع ألا يكون شاهداً على انهيار أحد أهم صنّاع القهر والذلّ وحثالات المجتمع من المسؤولين والنخبة، وحتى الممثلين وأهـل السـهر والمتعـة، تـألّم لأنّ هـذا الشـاب المسـكين سـيكون المعـول والسكين، وسيدفع ثمن ما زرعه جدّه من ضغينة على كلّ البشر في نفس أحد أشرس وأقذر ضباط الأمن..

أيّتها الأمّ منى ربّما عليك أن تتلوّني بحِدادك منذ اللحظة وإلى الأبد حسب ظنّي. هذا ما ردّده الحاجب وهو يتوجّه إلى زنزانة غيث وصديقه أحمد.

في الزنـزانة ثمّة ما يُطمئنـك أنّ الطريق الى الموت ليست بعيدة كما يتوهّم بعضهم، ووجود شريك يتقاسمها معك يعطيك أملاً أنّك ستحظى بنظرة مؤازرة منه لحظة وداعك لحياة جميلة، جميلة جدّاً.

تمسّك بالحياة يا غيث ما استطعت، ولا تحزن فأنت ستقرأ لي الفاتحة عند الفراق ذاهباً إلى ربّي حاملاً معي بعض ما قرأته أنا، وبعض ما ستقرؤه لي.

كانت تلك آخر ما سمعه من صديقه أحمد قبل أن يتحوّل إلى جثّة هامدة بين يدي أربعة رجال أمن، تداولوه تباعاً بين أرجلهم، واستعرضوا عليه فنون القتال بكلّ تنوّعاته، ثمّ تضاحكوا وعلت أصواتهم حتّى غابت معالمهم، وتعازموا على سيكارة ما بعد الموت، وكأنّهم للتوّ أنهوا وجبة دسمة تحتاج إلى تلذّذ ببقاياها مع رائحة التبغ.

ازداد غيث التصاقاً بالحائط، خانته حتى أعضاؤه، وهو يستنجد بها الصمود، تسرّب بوله من أطراف بنطاله، كاد يغشى عليه من الخجل، فضحك الرجال، وقال أحدهم: «أكان المشهد مرعباً أيّها المخنّث..؟». كان لسانه العضو الثاني بجسده الذي تدلّى فلم تنفع محاولات إدارة الكلمات بداخله.

اقتربوا منه جميعاً، مدّ أحدهم يده تلمّس وجهه كالمشتهِي، فقال له الحاجب: «انتبه يبدو أنّ معلمنا حجزه له». ضحكوا وصوت هسهسة تسكتهم: «صوتكم مسموع وسيادته يريد سماع صوته فقط».

انتزعوا حزامه ولكمه آخر على وجهه، نفر منه الدم ولم يصرخ، وبدأت رحلة السوط بين المدى وجسده، ولم يصرخ، لم يكن يملك من القوّة ما يدفعه للصراخ. ردّ عليه بغياب طويل تمنّى أن يدوم، لكنّهم أغرقوه بماء مبرّد، بعضه هرب سرّاً الى لسانه فأحياه من موته، ابتلع ريقه، وتحالف مع ما تبقّى من عزمه، فتح عيناً لأنّ الأخرى غارت في محجرها، وقد ألصقت دماؤه جفنيها، رأى سيادته واقفاً مكتوف اليدين يتفحّص ملامحه، ويمتصّ الزاوية اليمين من شفته السفلى، سأله غيث: وماذا بعد..؟!

وقع صوته على مسامعه كساقية عذبة تسير إلى مجراها آمنة مطمئنّة.

أيّ مشاعر تجتاحني أهي الذكرى أم الشبق إليك..؟

سؤال حار في داخل عماد، سأله غيث: كم مضى من الوقت..؟

قال: ثلاثة أيّام.

- سيتّصل بك يسألك عنّي. قل له: طيش شباب ذهب وصديقه..

- أمّك.. ألن تسأل..؟ ووالدك ألن يفعل..؟

أمّي وحدها ستعرف أنّني في أقبية جدّي، هي دائماً تراني في منامها أتوسّد أرضاً مبلّلة بالدماء. ألتحف قشر صبّارة. وتبكي حتّى تبلّل دموعها وسادتها.

عاد هو إلى ذكرياته مع منى. منى أيضاً كانت تغرق من تحب بهذيانها، تتنفّسهم محبّة وخوفاً. مراراً كانت تقول لي ما عليّ أن أفعله، لأنّها رأتني أتلمّس جسدها بكلّ أعضائي بمنامها، وأرادتني أن أفسّر حلمها لهيباً يستعر بفراشنا، ذات يوم رجتني ألا أضحك، وهمست حلمها في أذني، أدرتها خلفاً وعانقتها كما تصوّرتني بدءاً من خلف عنقها وحتى أخمص قدمها، زرعتها قبلاً، وروتني هي بريق كما العسل وزّعته، كما قالت بالعدل على كلّ جسدي..

لكن لماذا تراك أمك ملتحفاً الصبّار..؟

أيّ رؤية لامرأة مدلّلة سليلة السلطة والحرام.

تسرّبت في نفسه ذكرياته إليها.

على الجانب الآخر تسترجع منى عمرها في لحظة مَيْئوسة منها، تحمل رقم سيارة خطفت منها حلماً جسدياً، تبحث عنه تحت ألبسة الرجال الذين مرّوا بها، ويصعب أن تتذكّر أسماءهم جميعاً.

تبكيه بحرقة صامتة ودموع حارقة، هي السيّارة نفسها تقتلني مرّتين، تختطف أباً وابناً باحثاً عن صديقه. أيّها القدر كيف تحوّلت من صديق إلى عدوّ..؟! رحل والده منذ سبع وعشرين سنة، وسيرحل هو إلى الأبد، هو الآن يلتحف شوك أبي، ويفترش دمويّته المحفورة بين ثنايا نظامه.

تستنشق هواء غرفة لم تدخلها الشمس ثلاثة أيّام، وقد عانقت صورته فوق سريره الضائع بين عشرات الصور لغيفارا، وقمصان تكاد تطردها صورها الغاضبة والهاربة من حديقة حيوان، تفتح دفتراً متروكاً بعناية على زاوية مكتبه الصغير، عنونه (ذكرياتي وأنيني). كتب فيه: «ولدت زمن انسحاق الإنسان وسأموت دفاعاً عنه».

لفتتها كلماته التي تعرف بعض معانيها، عندما سألت عماد عنها ذات يوم، وهو يحدّثها عن قيمة الإنسان وقدرته على أن يصنع قدره مهما كان الظلم عميقاً، ومعالم الاستبداد تأخذ شكل المورّثات التي لا تعالج.

قلّبت صفحاته وحفظت حروفها جميعاً، وتراكيب جمله. هاهي أنّها لا تعرف عنه أكثر من اسمه، ووحدها ربما تعرف نسبه، لكنّه يعرفها جيداً، يعرف تفاصيل وحشية رغباتها، وتعدّد مَن يشاركها وسادتها، يبرّر لها كما لا تعرف هي كيف تدافع عن نفسها. أوصالها ترتجف قرفاً منها، بينما هو كتب لها يطمئنها:

أمّي تبدّل رجالها كما أحذيتها، ظنّاً منها أنّها ستجد بينهم من ترتاح لانتعاله، لكنّها أبداً لن تعثر عليه، فالفساد دخل مملكة الرجال عندما سلّموا أقفال سراويلهم على باب مكتب جدّي رجل الأمن الذي سيغتاله أمنه نهاية لحكايته. لن أخجل لو اكتشفت يوماً أنّني لست أنا من يدّعون، لأنني لا أمتّ إليهم إنسانيّاً، وهو النسب الأهمّ بنظري، حتّى لو كانوا من جنس الملائكة أو الشياطين.

تقلّب الصفحة والصفحة، وكأنّها تبحث عن نفسها بين سطوره، لربّما تعرف منه مَن هي، وكم أوجعته، أو أحبّته، لكنّها تصعق هذه المرّة أيضاً، فكلّ ما هي بالنسبة له بضعة سطور، تصفها كعاهرة، لكن لها ظروفها، تماماً كما وصفتها ذات يوم صديقتها الصحفيّة سلام في مذكّراتها، عندما قالت عنها: «إنّها حفرة صرف صحّيّ».

ويحي ما الفرق بين الوصفين..؟! كيف تغلغلت سلام بكلماتها بين دفتره ومذكّراته..؟!

مؤامرة كونيّة

مقال تتناقله الأيدي وهمسات في ممرّات الصحيفة، الأمن يسلم جثة شاب مقتول في زنازينهم. تمشي تداري خوفها المكتوم بين استفساراتهم، ونظرات شفقتهم ووشوشة تنتهك حرماتها، وقفت بباب رئيس التحرير تنتظر إذناً يفسّر استدعاءها، رفعت السكرتيرة حاجبها مشيرة لها بالصمت أمام الجالس إلى جوار مكتبها، دخلت تستجرّ شجاعتها، يصرخ بعلوّ صوته المكتوم أصلاً: «من أنت؟ مندسّة تستهدف أمننا القوميّ..؟ مَن دفع لك ومن جنّدك..؟ ما هي أجندتك ومن انضمّ إلى مجموعتك..؟ كيف حِكت مؤامرتك الكونية ومن شركاؤك ووووو؟!».

أسئلة وأسئلة، كلّ واحد منها تهمة تأخذها خلف قضبان يصعب كسرها، وهي لا تساوي صعوبة فكّ شيفرة الدخول إلى موقع الجريدة الإلكترونيّ لدسّ مقال بهذا العيار الدراماتيكيّ.

ثلاثة من المحقّقين لجهات أمنية مختلفة ينظرون بإعجاب لقاموس التهم، التي ألصقها بها رئيس التحرير، وهم يتسابقون في نقل وقائع الجلسة، ليختتم أحدهم بالقول: «معلّمي يريدك موجودة أمامه الآن».

تناقلت مواقع إلكترونية المقال بين مستغرب لجرأته، ومدهوش لنشره عبر موقع إلكترونيّ لصحيفة محلّية، ومانشيتات عربية تؤكّد فسحة حرّية رأي تمرّ في سراديب إعلامنا المحلّيّ، وتعكس ملامح الإصلاح القادم على يدي «سيادته»، وضيف على إحدى القنوات يعاقب جمهوراً فضائيّاً بمحاضرة تتحدّث عن معالم رؤية الانفتاح بخطة عمل سيادته، وبين هرج

التحليل ومرجه، صارت القضية بين العامّة مقالاً مدفوعاً من الأمن للتأكيد على الدور الرقابيّ، وحرية الإعلام، ومن متّهمة بقضّ مضاجع الأمن إلى عميلة له. كانت انفراجة مستقبلها الإعلاميّ تتهيّأ للولادة التي اعتبرها بعضهم مبكرة، والآخر غير شرعية المولود، وقلّة تعرف الحقيقة وما خفي منها.

أهمّ ما جاءت به المعمعة الإعلاميّة فرصة النجاة التي ساقتها ظروف قضيّة مقتل أحمد صديق غيث وخروج الأخير من عباءة جدّه المظلمة حتّى حدود القبر، وانبعاثة الأمل في نفس أمّ مكسورة إنسانيّتها حتّى حدود القنوط القاهر.

سلام تدخل إلى قصر الحكم متّهمة، وتخرج مخيّرة بين مجد وآخر، كلاهما حلم لم يغادرها وإن كانت بَنته بصدفة لم تتقصّدها وكانت تراهن فيها على نهايتها.

صوتها عبر هاتفها يضعها في مواجهة أجّلتها عشرين عاماً، عرفتها قبل أن تنطق كلمتها الأولى.

ألو.. ألو.. ويسود صمت طويل، يسترجعها إلى تلك اللحظة حيث تاهت بين قطرات عرقه وصرخات شهوتها، لم تتجرّأ حتّى على مواجهة ضعفها وهزيمتها، هربت من ذكرياتها، لتغرق بمستقبلها، وحده عملها شكّل كلّ اهتماماتها، لم تعرف حتّى اللحظة إذا كان صمتها خوفاً من منى ووالدها أم من سلام وفضيحة اجتماعيّة..!

في أعماقها تحدّثت منى طويلاً بكلمات كثيرة، لم تسمع منها سلام أيّة كلمة غير نبرة صوتها، صمتت ثمّ أسكتت صوتها بضغطة زرّ هربت منها إلى نفسها، ضحكت، بكت، رأت بعض نصر يتجاوز عتبة بابها.

فتحات التهوية المركزية وأكوام الأتربة وستائر بالية وجدران ملوّنة بقذارتها، هي المرّة الأولى التي تكتشف أنها تعيش تفاصيل مكتبها،

استنشقت رائحة الغبار، هالها أن ترى زجاج طاولتها المكسّر يحزّ ركبتها. نقلت نظرها بين حافّة الطاولة وساقها، اكتشفت أنّ علامة كالوشم تطبع مكان لقاء متكرّر بينهما، ضحكت، وعادت لتكتشف مكانها من جديد بعد عقدين من الزمن، سألت زميلاً دخل للتوّ: «منذ متى لم يمرّ عامل تنظيف من هنا؟».

نظر إليها مستغرباً اهتمامها المفاجئ، قال: «ولن يمرّ، ربّما سينهار هذا البناء فوق رؤوسنا بسبب تراكم أوساخنا..».

ذكّرها أنّ للكلام معنى آخر. أقرّ وأعترف، لاشكّ أننا نحمل بأنفسنا الكثير منها. نعم كلّ منا على طريقته، لا أحد يستطيع أن يستثني نفسه أبداً، فصمتنا أحيانا قذارة، وربّما يصل إلى درجة الشراكة منذ ذلك الزمن البعيد، وقد تجاهلت الحكاية لأنّني لا أستطيع حتّى الهمس بها. كان عليّ أن أعرف أنّني عندما سأكون الضحية القادمة لن يتألّم لي أحد، وهذا ما حدث، أذكر حين حرم أحد أصدقائنا من دخول كلّية الطبّ، لأنّه تجرّأ أن يسمح لابنة مسؤول كبير، كبير جدّاً أن تعشقه، فحرم من حقّه أن يتعلّم بجامعة مدينته، لأنّهم لا يستطيعون السيطرة على رغباتها..

استعادت سلام ثقتها بإمكانية الحراك الإعلاميّ على طريقة الرقص الغربيّ، خطوة إلى الأمام وخطوتين جانبيتين، ولا بأس بخطوة الى الوراء أقلّ اتّساعاً من سابقتها. انتزعت من داخلها خوفاً عشّش في ثقافتها، وبدأت طرق أبواب الإمبراطوريات الاقتصاديّة بانتقاد مغلّف، بسؤال عاتب عابث خجول، لكنّه يفتح آفاقاً من إمكانية الحوار قبل الحساب، وتوسيع الصدور ضرورة عالميّة لا يمكن تجاهلها داخلياً.

استقرأت الأجواء بحسّها المتعطّش للحرّية وإصرارها على المشاركة بانتزاع حصانة هدّمت بيتها كفعل مستمرّ لعمل مُمنهج، لهدم كلّ ما حولها، بدءاً بالإنسان وليس انتهاء به.

ربما يتفرّد بلدنا بميزة أنّ الصحفيّ يتحوّل من رقيب وصاحب فكر إلى شريك، وأحياناً محرّض على جريمة منظّمة تستهدف الإنسان في أبسط متطلّبات حياته، وتلغي حقوقه في أقلّ درجاتها الإنسانيّة.

كلّ اجتهاداتها بأن تكون أمينة على مبادئ توارثتها من زعيم عشقت كلماته، وأرادت أن تتمثّلها في حياتها، كشفت لها أنّ سياسة الحقّ والصراحة لهذا الشعب، حسب أنطوان سعادة، ليس لها مكان في سوريّته، ولذلك استبعدت تحقيق المجد، عبر تعليم الشعب وضعه الحقيقيّ، وحقيقة القوى الكامنة فيه، ليرتقي الى المجد الذي يستحقّ الوصول إليه؛ المجد هنا يحتاج الى تغييب الحقائق أيّها الزعيم..

كلّ حقيقة أكتبها تستقرّ بسلّة المهملات، حتّى قبل أن أتجرّأ وأعرضها على رئيس التحرير، أجنّب نفسي مذلّة الرفض وتحقير عملي، أرسله الى نهايته، لكن لماذا أكتب..؟ سؤال يعاتبني فيه قلمي بعد وداع مؤلم لمداده الى حيث لا يليق به؟

أكتب لأنّ الكتابة تعرّي ضعفنا، تكشف عمق تناقضاتنا، وتضعنا في مواجهة مع روحنا، كما خلقها الله، قبل أن تمتدّ إليها بشاعة أطماعنا الملوّثة بضغائننا، أريد دائماً أن أعرف حجم ذلك التشوّه الذي سكنني، فأخطّ كلماتي وأرقب عكسها الذي أنشره، لم نسمح لهم فقط أن يشوّهونا، بل نتشارك معهم جريمة تغييب الشعب من حساباتنا. نكتب من أجلنا ككتّاب، ومن أجلهم كسلطة، والناس – الجماهير العريضة – تسقط من حساباتنا كما سقطت من حسابات الحاكم والحلقات التي تدور في فلكه من قبلنا، لذلك لا يفاجئني أبداً أنّهم لا يقرؤوننا ولا يصدقوننا حتّى تلك الحالة التي أردت فيها استرداد إنسانيّتي بالمغامرة بكلّ شيء، مقابل نشر حكاية مقتل أحمد تحت سياط رجال الأمن وأقدامهم، انتزعوا منّي إنسانيتها واشتروها بمنصب سلطويّ، ليبدّدوا معانيها.

كانت صفقة رابحة انتقلت فيها من مكتب فيه أكثر من سبعة زملاء، لأنفرد تميّزاً بأربعة جدران وسقف ورئاسة دائرة. ما أرخص حلمنا البشري أمام قدرتهم الوحشيّة..؟!

المضحك بالأمر أنّ رئيس التحرير الذي استعرض عليّ خلال ولايته كلّ فنونه في الشتيمة، والإقصاء والقهر وتغييب اسمي من المكافآت والحوافز التشجيعيّة، وكاد أخيراً يلصق بي تهمة الخيانة العظمى. قدّم لي تهنئة خاصّة معتبراً أنّ سيرتي الذاتية التي يفتخر بها، كانت سبباً مباشراً في حصولي على ترقيتي هذه، متجاهلاً علمي بحقيقة الثمن المطلوب لهذا المنصب الجديد، وكيف عليّ أن أتوهّم أعمالهم ككتّاب لا يأتيه الباطل، وأن أستأذنهم في انتقاداتي لهم، من باب الديمقراطية، وأن أستشهد بأقوال سيادته المأثورة وخطته الاصلاحية المبهرة والخلاصة أن أفرغ قلبي من غيرهم ليمتلئ بكذبهم وحدهم.

فصلني عن جلسة جلد الذات هذه رنين هاتفي، صوته المتسرّب منه أيقظ حنيني إلى أيّام بعيدة، رأيته فيها متأبّطاً ذراع سيادته بلباس رياضيّ، وقد أشهرا مضربيهما إعلاناً لجولة تبدأ ولا تنتهي، منعاً لمعرفة الغالب والمغلوب منهما. سألني أن نلتقي، وبين قلب ينبض ترحاباً بدعوة غير متوقّعة، وأسئلة تصرخ داخلي عن ضعف قدرتي بامتلاك قرار رفض لقاء واحد من أكثر المقربين للحاكم من جهة وتجاهل ما يعصف بداخلي من رغبة لحماية شخصية يحيطني بها، كان هذا الضابط المنفتح على ثقافات الغرب يحيط نفسه بصداقات يرتبك المرء في تفسير أسبابها فمن المثقفين أشدهم عداء للنظام ومن الضباط أقساهم على الشعب وطأة ومن الشباب أكثرهم تمرداً على الحزب الحاكم، هو خلطة لمزهو بحسن طلته وتمرده وتقربه من حاكم غابت معالم ربيعه الانفتاحي الذي وعد بها جماهيره بداية حكمه لمصلحة قبضة أمنية اقتصادية وبضع انفراجة في حق

التعبير عن الرأي مع احتمالات مفتوحة لتغييب من يصدقها في زنازين معتمة حالكة في سوادها، سارعت إليه حاملة طموحي، وبعض أملي، لأنّني تركت جلّه في حقيبة يدي، حيث نامت أوراقي آمنة على نفسها من التلف، ربّما يصعب إنكار حضوره الطاغي بنفسي حين حدثني عن حق الناس في اعلام يحترم عقولهم ويوفر لهم خيارات بديلة يلجؤون اليها هاربين من مآسيهم، ضحكت وأنا أستمع لتفاصيل عذاباتنا كسوريين في مكتب تغتالك فيه رائحة العطر الفرنسي ويبدد فراغاته قطع الأساس الفاره المشغول بعناية الصنعة اليدوية في أهم ماركات المفروشات العالمية وتغيب سحائب السيجار الكوبي ملامح مستضيفك ليحل صوته العابق ثقة بمسامعي وهو يقول لي الشعب أمانة بقلمك فاجأتني العبارة ولكن ربما؟!!! لكن أيضاً يصعب لمثله أن يقنعني بانتمائه للشعب كفاحاً وقضية، لكن ربّما تودّداً وتكفيراً لذنب نتوارثه دون إذن منّا، وندفع ثمن خطيئة لا يجدي التنصّل من ارتكابها.

هو سليل الحكم العسكريّ في بلد تستعر به ذكريات مجزرة حماة، وتفوح رائحة دماء شهدائها، من أزقّة ياسمين فيلاتهم المنتشرة بين المدن والمصايف، لغة الحبّ والتسامح والتصالح عابقة بإرادته، لكنّها غير قادرة على التواصل إلّا مع النخبة المثقّفة التي تحلّقت حوله، إمّا إيماناً بقطيعة مع الماضي، أو تملّقاً لصديق الحاكم، وثالثة تلبس رداء المنافق.

شعرت به صادقا بدعوته لحمايتي، يعرف تفاصيل معركتي مع ذاتي قبل انتقالها لتكون مع الآخر، خاطب أحلامي فدسست أوراقي بين يديه، هاله حجم معرفتي فبثّ ذعره يتقدم مرتبة أو أكثر من عواقب وعيي المندسّ في وطن كتب عليه التغييب، ومورست من أجل هذه الغاية كلّ أنواع الإقصاء والتهميش والاعتقال، وربما فتح أمامي مجالاً جديداً للحوار، لكن غير المجدي إعلاميّاً، حيث تقيد عملية النشر قواعد لعبة

التغابـي والتـذاكي، بعيـداً عـن المهنيـة وشـجاعة الكاتـب، بـين مسـؤول وموصول.

والموصول يعني من هـو بموقـع غير رسميّ، لكـن صلته مباشـرة مـع سيادته، أو إحدى الحلقـات القريبـة منـه أو معـه. كـان الحـوار دائـراً عـن شكل جديد للإعلام، يرجع فيه تصنيف إعلامنا عن المراتب الأخيرة في حرّية الإعلام دون الغوص عميقاً في أسباب هذه المرتبة المتأخّرة.

على جانب آخر كان المنقذ الاقتصاديّ يبحث عن إجابة لسؤال: «كيف يتقرّب من الناس..؟». كدت أطلق ضحكتي بوجهه وأقول له: «يدك في جيوبهم وتدقّ أعناقهم يوميّاً، أتريد أن تقترب منهم أكثر..؟».

كثـيرون مـن النـاس، وهـم محقّـون طبعـاً، لـديهم عشـرات إشـارات الاستفهام حول ما نكتبه، وإيماننا به، أقسم إنّني أكتب الحقيقة، لكن دون أن أنشرها ولا حتّى نصفها أو ربعها، وربما عشرها، أو بعض تضليل حسب التوجيـه، حتى عنـدما نتحـدّث عـن الفـنّ وأهلـه، وللـدراما وجعهـا الخـاصّ الأكثر إيلاماً لأنّنا نـزوّر، ليس وقـائع وحسـب، بل نـزوّر الذائقـة والمتذوّق والمشاعر. نعم شركاء في أنصاف حقيقة تغيّبها كاملة، وفي الجريمة كلّها.

نقـد لاذع لا مـبرّر لـه ففنّانتنـا مرهفـة الإحسـاس، عميقـة التجربـة، خرجت للتوّ من عالم الإعلان والدعاية إلى الدور الثاني القابل للتطوير، ليصبح الأوّل، وسترشحها الحكومة كممثلة أولى لكل الجوائز العالمية التي سنشارك بمسابقاتها لتكون سفيرتنا إلى عالم الفن الدولي وسيغيب قصرياً كـل الفنانين المرشـحين لأي مشـاركة إما باعتـذارهم عنهـا أو بمنعهم مـن السفر تحت طائلة المسؤولية.

هذا ببسـاطة يعني قلـب مـوازين النقـد الـدراميّ، لتصبح على مقـاس تمجيد ممثلة، وهو ليس بالأمر الجديد، لكن سابقاً يبرّر بعدم توفّر البدائل، واليوم بتوفّر المشاعر الخاصّة.

أيّها الرأي الحرّ وقد أصبناك بمقتل منذ خمسين عاماً، لن تتألّم كثيراً ولا قليلاً بادّعائنا اليوم كذباً إبداع فلان أو تمجيد حسناء، أو اختراع فنانة تجيد التمثيل على أسرّة مسؤولينا، وتتناسى أدوارها أمام كاميرا مخرج يتوهّم صناعة مجد.

عاد بي الزمن موغلاً في قدمه، حيث جلسات الأنس تقام لمجلس قيادة الثورة في الستينيات من القرن الماضي، يرعاها أحد أهمّ فنّاني سورية، بل والعالم العربي، ويقدّم ضحاياه الجديدة على مذبح المسؤولين صبية حسناء. ومنذ ذلك الزمن لم تتغيّر أساليب اختيار الفنانات في كثير من أدوار البطولة، فصديقة مدير مكتب الحاكم بطلة إجبارية في أيّ عمل يموّله المال العام، في حين تتراجع الممثّلات القديرات لقبول أدوار مساندة لها.

لم ينجُ هذا الفنّ من الاستثمار بالقوّة الذي يمارسه رجال أعمال مقرّبون من أجهزة الأمن، فقد كانت الخشية من انفلات قدرتهم على فرض أدوار بطولة لشخصيات محدّدة، تدخل الرعب في نفوسهم ونفوس أنيسات جلسات الحلقات الثلاث المقرّبة والقريبة والأكثر التصاقاً، ما دفعهم لإطلاق شركات إنتاج فنّيّ برأسمال كبير، يستطيعون من خلاله عرقلة الصعود الفنّيّ لممثّلين غير خاضعين لامتحانات عبور نفق الذلّ الخاصّ بهم.

بشّرت الشركات الخاصّة بولادة دراما تعبّر عن ألم السوريّ، وتشبهه في محطّات كثيرة، وكان من الصعوبة محاصرة امتداداتها التي تتوغّل في دواخل الناس، تتحكّم بمشاعرهم، وتضعهم أمام تساؤلات ليس أصعبها: لماذا علينا أن نبقى غطاء شرعيّاً لعصابة غير شرعية تتحكّم بمصائرنا..؟!

تطوّرت أساليب القمع والتغييب هذه المرّة من شركات الإنتاج الموجودة لهذه الغاية، فكان خيارها اللجوء إلى دراما تستعيد حضور الغرائز وتفاهات المشكلات، وانحطاط الذوق العامّ، بعض بطلاتها من

الحسناوات اللواتي عرفن تجاوز اختبارات الذلّ، واستبدلن بأسماء حفرهنّ تاريخهنّ الفنّي ليكنّ في الصفّ الأوّل بعد عناء تجربة، وطول صبر، وتحمل مصاعب، لكنّ هذا لم ينفِ حضور أسماء محترمة أيضاً بهذه الاعمال لإغراء المشاهد بالمتابعة، ويتم ضمان قبولها أحياناً بحصارها وتهميشها، وأحياناً أخرى بتهديدها..

دخل إلى مكتبي معانقاً أوراقه متجهّماً يرتجف غضباً، ويستولد كلمات لم أعتد أن أسمعها، لهجته الشرقية تعينه على ابتداع خطاب هجائيّ قريب إلى النفس غير مبتذل، سألني الصمت عشر دقائق، ضحكت منفّذة مطلبه محترمة عمق وجعه، آخذة بالحسبان زمالة العمل، وألم الإبداع.

أعرف أنّه لن يتجرّأ أحد منكم على النشر، لكنّني أيّتها السيّدة سُرقت، لا تضحكي، فما أملكه يفوق جدّاً بضعة ثياب من ماركات شهيرة، أو حذاء هارب من «فيترينا» باريسيّة، فلحظات هيام روحي مع خالق مبدع أكتبها على ورق، كما تفعلين وأنت تتعرّين من كذبك، أحياناً بخطّ كلمات أقرؤها بين السطور باحثة عن عقل متلقّ جائع لمفردة غير معلّبة من حزب حاكم، تتسلّل روحي إلى كلماتي فتخرج مشهداً مشهداً سيناريو يحكي قصص بعضنا، يهمس لمشاهد آن الأوان لتكون معي نصنع طوق نجاة من قارب الفقر والجهل، وودودة «دنيا» التي تثرثر وتثرثر وجعنا وآفاتنا وحقدنا.

نعم كنت أهمس له نعم ليسرع في سرده، بينما أنا أسافر إلى عالمي، هو جاء يشتكي سرقة إحدى الفنّانات المقرّبات من القصر لمسلسله، ماذا أقول أنا، وقد سرقت إحدى بنات المسؤولين الأمنيّين حياتي وزوجي ورمتني إلى وحدتي، أعيش على أطراف حدود حرّيتي التي أدّعيها، آهٍ من تلك الليلة وكأنّني أذهب اليوم إلى مكتب منى ابنة سيادة اللواء، أفتح

الباب وترتمي نظراتي على زوجي بين يدي امرأة وحضن سلطة مستبدّة حتّى السرير.

يرتفع صوته ويرتمي بأحضان حزنه، يكتم أنين دمعة غزلت مكانها على رموش مبلّلة، تصطكّ أسنانه، بينما يتعالى نفسي، أشاهدها تغتسل بعرق زوجي.

يضرب هو يده على طاولة، يقول: «هو مسلسلي».

لو كانت تعلم منى ماذا سرقت منّي.. تنغرز أظافري بباطن كفّي أشعر بنشوتها تنمّل أطراف جسدي، يرتاح بها كما لم يكن يفعل بي يوماً، وأنا أسأله: «أجفاء بعدك أم شبع..؟». ويقول لي: «متعب يا مناي..!».

آهٍ لقد ناداني باسمها مراراً ولم أنتبه. ظننته يتودّد منّي فإذ به يراهن على غبائي. أبكي لا أريد هذه المرّة أن أكفكف دمعي، أريده أن يغرقني، أن يطهّر قلبي من ذكرياته، أريد ان أقول: نعم أنا امرأة أتهاوى من داخلي.. بئس حياة نخدع فيها كلّ مَن حولنا، بدءاً منّا.

فتحت عيني الغارقتين بالماضي، فإذ به يواسيني، يقول لي أتفهّمك سيّدتي، أردت فقط أن تشاركيني هذا السرّ، ربّما أنصفنا الزمان وانهارت قدسيّة الأشخاص، وأصبح للإنسان عدالته. هذه أدلّتي أضعها بين يديك مسلّماً أمري لمن يمهل ولا يهمل.

فتحت يدي أجمع أوراقه خشية البلل، وقد تجرّعنا معا دموع سرقتنا. لسع لهيب جرح وقطرات دم تناثرت فوق طاولة اعتادت أن تشرب قهوتها وتبتلع ماءها، واليوم حضنتني باكية، وسال بعض دمي ندماً وحنقاً..

يا الله كيف خلقت لهم أيديهم الطويلة لتصل إلى كلّ تفاصيل حياتنا، حتّى شريك وسادتنا وحلم ينام على ورق..!

مراسمُ استقبال

زيارة هي أشبه بحامل كفنه متقدّماً من طالب رأسه، عندما استقرّت سيّارته على باب القصر، بينما تزاحم الشهود عليه، رأيته وقد بدأ خطوته إلى لحظة المجهول، يستطلع المكان بعيون تختزن انكسار هوانها، وأقدام تستغيث قدرتها على المشي، خطوة تلو أخرى، كان نبض قلبه مسموعاً رغم ضجّة هدوء المكان بأنفاس مكتومة، والرهان على وصوله إلى حيث تستقرّ يده بمكانها، لتستند إلى يد مضيفه متجنّباً عثرات خوفه، ومطبّات عداوة لم تبقِ مطرحاً لسلام موعود واهم وهشّ، تصوّرته في خطوته الخامسة سيقع أرضاً، لكنه استجرّ قواه وتابع يجرّ إليه نشوة نصر يتشفّى بكلّ مخالف له داخلياً وخارجياً..

هي في ظاهرها مراسم استقبال لرئيس وزراء البلد الشقيق لكنها في الحقيقة مراسم تشييع لمرحلة حاصرت أحلامه الوجوديّة، وأسّس اليوم لما أسماه انتصار الرؤية السورية.

بيروت نائمة على استغرابها، ووجع ملوك طوائفها، ودمشق تحتضن من جديد قرارها، وولاء بيروت، وتستعيد نفوذ ضبّاطها وسراديب موصولة بين مكاتبهم السرّية ورموز ساستها، وعلى الحدود ولائم فرح انفتاح منافذها..

لا أعتقد أنّ نفق الذلّ الذي يعبره عادة السوريّون أطول من ذلك المعبر الذي مرّ به هذا الشيخ، واضعاً نفسه على مذبح انتحاره السياسيّ، ربّما دون أن يدري وضعنا نحن أيضاً أمام تساؤلات جديدة قديمة، وماذا

عن انتحار الحجج والمبرّرات أمام تأخير وعود إصلاحية سياسية أجّلت سنوات، للتفرّغ لإعداد الخطط اللازمة لمشهد الانتصار هذا، نظرت إليها أرقب من خلالها ملامح المشروع السوريّ للسوريّين، لم ألحظ بوادره، غادرت موقعها الذي اختارته، لتمنح نفسها طولاً يمكّنها من مشاهدة الحضور، ورصد تعابيرهم وهمسات تعليقاتهم، رمقت إحدى الواقفات بمكان متميّز بنظرة حاقدة، أشعلتها ريبة، وكاد الخلاف البصريّ يتحوّل أمام الحضور، إلى اشتباك نسائيّ، وددتُ لو أتقدّم الصفوف، وأستفسر التفاصيل، لكن بسرعة غادرت الإعلامية المعروفة المكان، وتركت الأخرى تعيش تفاصيل إعداد المكيدة المناسبة لها..

معركة خفيّة على صفحات جريدة محلّية بين كلّ الدولة وكادر تحريرها، وكانت حالة الطوارئ رفعت لحين غير مسمّى علامات استفهام كثيرة، حتّى العاملين في الإعلام أصابتهم رحاها، سألت زميلاً: «كيف تقرأ هذه الصحيفة..؟». قال: «إنّ السيدة التي تقودها مدعومة من فوق». مشيراً كالعادة بإصبعه وحاجبيه إلى الأعلى. لكن مَن هو قاطن فوق، إذا كانت تلك العدوة لهذه الإعلامية من ساكني نفس الـ (فوق) التي يشيرون إليه؟

الإجابة ليست بيننا لكن بين السطور ما يستوقفني، وفي مقالات الرأي ثمّة تأفّف باد في كلماتها لم يبقَ إلّا أن تسأل: وماذا بعد إخضاع عواصم الجوار؟ ماذا عنّا..؟ أين الوعود ومن يعرقلها..؟

كدت أكسب رهان مقتلها، لولا أنّ شيئا (فوقيّاً) كما قالوا تدخّل، وبقيت أجمع خيوطاً سرّية بين مقال وآخر، ولا زلت حتى الساعة عاجزة لا أفهم مضمون تركيب معانيها البعيدة أكثر من كلّ ما هو قريب تلمح إليه، لتلهينا عن تعقّب أهدافها.

هاتفي يناديني. أرفعه أقرأ «رقم خاصّ»، تربكني العبارة، والصحيح تخيفني، أتراها هي من جديد..؟ ماذا أقول لها..؟ كيف أواجهها..؟ ولكن لماذا أرهبها وأتحاشى مقابلتها..؟

أسئلة تحاصرني، والرنين يصرخ بي، وذكرياتي تستنزف إنسانيتي، والمكان ينظر إليّ يحفظ تفاصيل خوفي، يسألني عن شريك كان هنا في ذلك الركن من بيتنا، وعلى هذا الجانب من سريري، وتحت تلك الياسمينة التي تعربش على بلكوني الصغير، وتتّكئ في طرفها على الآخر، على شرفة جارة ثمانينيّة لم تملّ سؤالها: ألن يعود زوجك من منفاه يابنتي..؟

يرنّ. يتعالى صوته، ورقمه الخاصّ يفتح فمه كغول يبتلعني، رأسي يتحدّاه، يهتزّ يمنة ويسرة، لا لا لا ينطفئ الضوء، فأطلق شهقة الحياة، أغمض عيني، وأجلس على نفسي، أضمّها بين ذراعي، لعلّي أبثّ الأمان فيها. لحظات وادعة يختطفها منّي رنينه الذي يتحدّاني، أقترب إليه أحمله، أضغط زرّه الأخضر، يأتيني صوته: أترفضين مكالمتي أيّتها الصحفية..؟ ويطلق العنان لضحكة صاخبة يخرج بها من هاتفي، أجده مقابلاً لي خلف مكتبه يسألني عن مذكّراتي، يعطيني الكتاب مفتوحاً على صفحة أذكرها تماماً، لأنّني اختصرت بها حقدي، وتجاوزته كبراً بعبارة لا تتجاوز عدد كلماتها عدد سنوات عمري الضائعة على يديها..

- مَن هي سيّدة العهر السلطويّ التي وقعت خطأ في حبائل صداقتها، فكانت مجرّد حفرة صرف صحّيّ؟

وجهه وضّاء، وذلك الشعر المنحسر على جبينه يزيده بهاء، بعيون ثاقبة وابتسامة لا تعرف لمن يهديها، فكأنه يتعلها قبل أن تغادر حوافّ شفاهه، خطت السنوات توقيعاً على مفرقيه، وامتلأ بطنه حتّى تحار أهو مشروع كرش الوجاهة أم تمرّد على أيّام جوع ماضية. وسامة ماضيه حاضرة في عقده السادس الذي يستعجل سنواته..

- سيادة اللواء، هي مذكّرات امرأة لن تضرّ شيئاً بأمن المكان الذي تديره، وإن كنت تفاجئني باهتمامك الذي تبديه.

انتقل من خلف مكتبه، وهو يحضن كفّه بكفّ، ويطرق رأسه الذي يحرّكه بين إشارة إلى الأرض، وأخرى إلى السماء، طوله لافت، وذوقه في اختيار حذائه الذي خرج للتوّ من أرقى ماركات العالم، وقف مقابلي، ثمّ أمال رأسه يميناً وبحركة منه كرر سؤاله، وسحب الكرسي المقابل لي:

«سيّدتي أرغب أن أعرف من أنت ومن هي..؟».

قلت: أنت تعرفني جيّداً سيّدي. ألم نلتقِ قبل حين من أجل مقالي..؟.

- نعم وأنا منذ ذلك اليوم أتابع نشاطك، وسرّني أنّ لك هذه المذكّرات في الأسواق وأرغب بإجابة عن سؤالي.
- مجرّد امرأة مرّت بحياتي.
- مرّت..؟
- نعم.
- وهذه الدموع التي تنزفين..؟ والوحدة التي تغرقين فيها..؟ أراها تسكنك أيّتها الهاربة.
- يا سيّدي عندما أخرجت هذه المذكّرات شعرت أنّني تحرّرت منها..
- ما زلت أنتظر إجابتك، وربما ستحرّرك هذه الإجابة من سجن أوهامك، بأنّها محصّنة حتّى من ذكر اسمها، فهذه المرأة كما وصفت تشبهها كثيراً، بشرتها النضرة، وشعرها المسترسل حتى حدود خصرها المنحوت، وبقايا ضيعة نائية تسكن بعيونها، وشبق يغتال خجل النساء، وعذرية الأمكنة تتلوّى عشقاً، وتتنفّس إغراء بحضورها.

صوته المرتجف، وهو يقرأ ما كتبته قرفاً منها وحقداً عليها، يحنّ الى تفاصيلها. وهمُ دمعة يتخايل أعلى خدّه الأيسر، مسحها على عجل، واستنشق ماء أنفه.

فضحته تقاسيمه الحزينة، وأربكتني. أتراه مرّ بسريرها أم مرّت هي بمكتبه الفاخر هذا..؟ أشكتني إليه أم يشكو غيابها إليّ..؟ لماذا يستعيدونني من حاضري ويذهبون بي إلى جنبات عمري الحزين..؟ أما آن لي أن أختصر ألمي بمغادرتها دون رجعة؟

- سيدي هي صديقة لم تتعلّم حرمة الأماكن ولا قدسية الصداقات، زرعتها في حياتي أملاً في إنسانيّتها تستفيق على يدي، فحصدتني كرهاً أذاقني مرارة الفراق، ووحشة الطلاق. أتكفيك هذه الإجابة..؟

تفحّصني. مدّ يديه إليّ. كانت بيضاء الكفّ، كأنّها مندسّة بالحرير، دافئة حتّى الأمل، لم أدرك كيف غادرتني يدي لتسكنهما، مسّد بإبهاميه أصابعي، وكرّر سؤاله: أيّتها الفاتنة ما اسم قاتلتك؟

وقفت لأبتعد بنفسي عن ألم أضلاعي المتزايد، وتركته يشهق ببكائه، صامتة أحترم ذكرى لا أعرف كيف يكون وقعها عليه. عندما استشعر بخوفي منه، استعاد جلسته، وطلب منّي الجلوس مقابلاً له. أطعته، وددت لو أطرح أسئلتي، لكنّني ابتلعتها خشية أن يبتلعني بحنقه الذي يتفجّر احمراراً ودمعاً.

صوت صراخها يعبق بالمكان، أنسيتم من أنا..؟! ابتعدوا. سأراه، أريد أن أعرف كيف تجرّأ على ابني. قام، مشى نحو الباب، فتحه، فإذ بها تقف بمواجهته. أشار بيده إلى الحاجب أن يبتعد عن طريقها. دخلت خطوتين، قبل أن تنظر في وجهه أغلق الباب، حاولت أن تعتذر لطريقة دخولها، نظرت إليه، فتحت يديها، سمعت صوت تهاوي حقيبتها بصوت

ارتجفت حباله، حتى ذابت كلماته: «أنت عماد. ماذا تفعل هنا.؟ أأنت معتقل منذ ذلك الحين..؟».

التفتت إلى سلام:

أجئت تكتبين عنه لتخرجيه من أقبية أبي كما أخرجت غيثاً من ظلمتها ذات يوم..؟ أجئت تكتبن عنه لتخرجيه من أقبية أبي؟!!! جثت على ركبتها أمامي أمسكت يدي طبعت قبلتها على خاتمي متوسّلة: «سامحيني». ثمّ وقفت وتوجّهت إليه، أمسكته من ذراعيه، مرّرت يدها على وجهه: «أنت حيّ حبيبي». وألقت برأسها على صدره، لا أعرف كيف اشتعلت غيرة وعلى من، عليها أم عليه أم على طليقي المخدوع، أمسكها وأجلسها مكانه حيث كان للتوّ يتجرّع ألمه منها.

بين ضحكات فرحها وتنهيدات بكائها، ألقت عليه عشرات الأسئلة: «لم أعرف أنّ أبي يعرف مكانك إلّا حين جاء غيث يستنجده لإنقاذ صديقه. لقد قرأ رقم السيارة التي اختطفته من بينهم، فعرف تبعيتها. كان الرقم ذاته الذي لا زال يحفر بذاكرتي يوم اختطفوك منّي. هو اتّصل إلى هنا؛ مكتبه أقصد سابقاً، لذلك جئت هنا أسأل عنك وعنه.

يضغط على كتفيها كأنّه يثبّتها في المكان، ويهزّ برأسه مغمض العينين، يخفي حنينه ووجعاً كان يسترجعه منذ لحظات بين سطور مذكّراتي، أيّ شريرة هذه تسكننا ألماً وقسوة وحبّاً..! لم أشعر بكرهي الذي اجتررته سنوات من عمري ينفجر بوجهها، حزنها، فرحتها، واسترجاع ماضيها، انتزع منّي كلّ ما أعددته لها. أأضربها..؟ أمزّق صدرها لأنتشل من بين ضلوعها قلباً لم يحفظ مكانتي وصدقي معها..؟ ما الذي يجعلني جسداً لا حراك به، بل وتتعاطف روحي معها..؟ أشكّ أنّني أستطيع منع نفسي من المسح على رأسها، أو

احتضانها لأبدّد ذلك الحزن العميق الذي يضرب أعماقها، أيحزن هؤلاء مثلنا..؟

سؤال استرجعني من الاستغراق بحالتها، ومن هذا المعتقل وكيف لا تعرف أنّه سيّد المكان، بل الأمكنة جميعها في بلد همساته مكتوبة في أدراج مكاتبهم، ولا تقام الصلوات المقدّسة إلّا بإذنهم..؟

فتح الحاجب الباب، فأطلّ وجه ألفته بين صور المسؤولين الأمنيّين، قدم له عماد ولاءه بعد سلام حميميّ، فالتفت إلى منى وسألها عن والدها وابنها وزوجها. كفكفت دموعها، وهي تقف لردّ تحيّته. فقال لها لا تهتمّي لشيء، سيفعل سيادة اللواء عماد كلّ ما تريدينه، وقعت عبارته عليها كسكّين يحزّ عنقها، أرادت أن تهمّ بالكلام، فسارع عماد لسحب ضيفه إلى مكتب آخر، تاركاً لي مهمّة توضيح ما لا أعرف تفاصيله، وأحتاج الى تفسير له.

قالت: «اللواء..!». وعيونها مسكونة بدهشتها، بينما تبحث يداها عن مسند كرسيها، لترتمي بحضنها، لكن انهيارها كان أسرع إليها من تماسك قدرتها على الجلوس. حاولت أن أسندها، لكنّ جسدها المرتطم بطرف المقعد، وزاوية الطاولة التي تفصل بيننا، تمدّد على الأرض سابحاً بغيبوبته. فتحت الباب أطلب معونة. دخل الدكتور فاروق، حملها بين ذراعيه مغادراً. لحقت به، وفي الطريق إلى المشفى القريب، كان يبذل دمعاً صادقاً لامرأة عرفها طفلة، وترعرعت أمام ناظريه حتّى قاربت أن تصبح جدّة. هلوساتها غير المفهومة وأسماء كثيرة ربما ممّن عبروا جسدها.

الثقافة لا ترتقي بالمرأة عن ثرثراتها، وسوء نيّاتها تجاه المرأة الأخرى. ما أبشعني حتّى لو كنت أصبت من غير علم بتقدير معنى كلامها..! نحتاج إلى إعادة تربية أنفسنا، قبل أن نطالب بتغيير قوانين تحكم علاقتنا بالمجتمع. التغيير الحقيقيّ الذي يجب أن نتوجّه إليه هو تغيير ذهنيّاتنا

وقبولنا للآخر على أنّه يشاركنا مكانه، كما نتشارك معه هواءه، وكلانا لخدمة الإنسان..

عذراً يا رفيق سعادة كلماتك، وإن كنّا نحفظها لكنّها حتّى اليوم لم تتغلغل إلى نفوسنا حقّاً..

«عماد». وتعود لسباتها، وأنا أتفحّص ملامحها، كيف لم تمرّ السنون عبر هذا الوجه الجميل، أو تترك بصماتها على هذا الجسد الغضّ والمتناسق، كأنّها تغادر للتوّ عامها العشرين. لم أسمع أنّها تمارس رياضة، وأضحك في سرّي لخبث نيّاتي، اللهمّ إلا رياضة السرير، سامحني يا ربّ يا مالك كفافنا، فأنا المرأة الآثمة، وأنت الغفور لخطاياي..

أصابعها تتحرّك، تبحث عن قوّة ترفعها إلى وجهها، لتنتزع من أنفها أنبوب التنفّس، هرعت إليها، فتحت نصف جفنها وعادت دموعها تتسلّل إلى خديها: «سامحيني سلام، أحبّك، رغم ظلمي لك أنت صديقتي، رغم غدري بك.. أين عماد..؟».

- من هو عماد..؟ هل تعرفينه..؟ أصدقيني القول أرجوك..
- أنا لا أدرك معنى ما حدث.

ربتّ على يدها طالبة منها أن تستعين بهدوئها، دخل والدها يحيط به رجلان، أحدهما أعرفه، زوجها أمجد والآخر فهمت أنّه شقيقها، أدارت وجهها عنهم، وطلبت أن تنعم بالراحة بعيداً عن الزيارات. اقترب والدها، حاول أن يستقرأ ما حدث لها، بالغت في صدّها حتّى خجلت وهممت بالرحيل، لكنّ استجداءها أبقاني على مضض يسبقه، حقيقة، رغبة جامحة لأعرف التفاصيل، مَن هو هذا الرجل المحفور بذاكرتها حتّى أنين الموت، والمزروع بها حتّى نسيان غيث ولدها..؟!

أمسك والدها يدي متوسّلاً إفهامه ما حدث بعد أن غادرنا الغرفة، اكتفى بمعرفة المكان ليتوقّع النتائج، هو الآخر دخل في نوبة هذيان مماثلة

لم يخرجه منها إلاّ مرور اللواء عماد مستفسراً عن حالتها، ثمّ تجاوزنا إليها مشيراً لي باللحاق به. دخلنا معاً، تهلّل وجهها، رأيته يتحوّل الى إنسان فجأة، تقدّم حتى لامس بيديه شعرها، ثمّ انزلقت يده اليمنى لتمسح ثغرها، وتمسك بأسفل ذقنها.

- ما زلت جميلة يا مناي..

كانت يدها تغيب خلف ظهره حتى وصلت نهايته. قالت: «أما زال وسمي الجميل هنا..؟».

هزّ برأسه مؤكّداً.

- مَن أنتَ..؟ من هو سيادة اللواء..؟ أريد أن أفهم..؟ أين كنت ولماذا غادرتني وأنت تعلم ما بي..؟ وكيف أصبحت منهم وكرهك لهم يتردّد صداه بي..؟ أليسوا الحثالة الحاكمة..؟ ألست المواطن المقهور منهم..؟

أخذت يده، رفعتها إلى وجهها، أمسكت بساعته، وضحكت: «سويسريّة، ثمنها يساوي غرفتك القديمة، أتذكرها..؟».

لا يزال بيتي.. أتنفّسك بجدرانه وأتّكئ إليك. على سريري المهترئ أكتشف إنسانيّتي ورجولتي، بين شراشفه البالية التي كنت ترتدينها على جسدك المرتجف وهو يقطر دماً بين حاجياتي القديمة، خبّأتك عندما دفنت روحي بربطة عنقك.

و.. ضحك: «أتذكرين أحمر شفاهك..؟!».

غادرته الضحكة ليحلّ الأسى.

لماذا تركتني بين أيديهم يمزّقونك منّي..؟ آه لو تعرفين كيف خرجت من تحت جلدي إلى قبر إنسانيتي.. لم أعرف أنّني عشقتك إلّا حين سرت الكهرباء داخل أوردتي، فارتعشت أناديك: منى حبيبتي.. تخيّلتك كلّ الرجال الذين قتلتهم والذين ارتادوا حرماتك بي، أبقيت على حبّك

كآخر خيط موصول بذكريات رجولتي عندما كنت رجلاً. أتفهمين مقصدي..؟ تمنّيت لو كنت ربع سلطتك، خمسها، عشرها، أردت ان أكون، ولم أكن. الرجال أنتم والنساء أنتم وما بينكم نحن عبيد.. تمنّيت لو كنت منكم، ليس لفقري، فأثرياء كثر ذاقوا ما كنت أتجرّعه، ولكن ضعف حيلتي وحيلتهم أمام قهر السلطة. ظننت بداية أنّ انتمائي لمذهبي سبب، فردّ عليّ بعض المعتقلين من أتباع مذهبكم. ظننت فقري فكان أبناء المال جيراناً لي في زنزانتي، مع فرق أنّهم يستطيعون شراء الطعام والتبغ والضمائر، وكنت محاصراً بضعفي. كرهتكم جميعاً حتى نزلاء أقبية الذلّ، وحدها السلطة منجاتي، تمسّكت بذيل أحمق مهووس بغرائزه، وحفرت الى أحضانه نفقاً خاصّاً أعبر منه إليكم، ولا زلت حتّى اليوم مشغولاً بعبوره.

- لكنّك هجرتني، تركت دمي على شراشفك، ورحلت، وزرعت روحك بأحشائي وهربت منّي، بحثت بين أزقّتك عنك، وسألت كلّ شاهد على حبّنا حتى مشاة حديقة العشّاق لم تأتِ.. لم تأتِ.. أين ذهبت؟!!
- كنت هناك على سور حديقتك تمشين بثوب ملكيّ بين أذرع تحيطك وأخرى تغادرك. رأيتكما معاً، لم أكن مدعوّاً لأباركك، تركتك لسليل عائلة المجد، وذهبت لأكتشف كيف لا أصبح بعد اليوم عبداً..
- أحقّاً تحرّرت..؟
- ربّما تحوّلت بين عبد يستجرّني والدك إلى حظيرته متى شاء وعبد يقتل مَن يشاء لعبد يحرّر مَن يشاء.. كلّنا عبد مأمور لعبد مأمور.. أنا اللواء عماد، لو كانت السلطة التي أمتلك الآن ثمنها أن أقتل أبي لفعلت، لكن الحمد لله أنّ ثمنها كان

أنا وأنت ورجولتي، وهو ثمن لا يعادل مكاسبي. وأنت ألم تقتليني عندما تزوّجت وخنت..؟

ركض إلى حقيبتي، فتحها، أخرج كتاب مذكّراتي، وألقى على مسامعها وصفي. «ألست أنت وجورج وخالد ومصطفى ومحمد وبهجت ورستم وعمران وألف عماد وعماد..؟ أين أنا منك..؟ وهذه المرأة مَن..؟ قولي. أليست بعض جرائمك..؟».

تسمّرت في مكاني أبحث بين قطرات دموعها عن شفقة أرمي بها إليها، لكنّني وجدت نفسي بين غارقين بدمائنا يستعبدان من ولدتهم أمهاتهم أحراراً، ثم يتفنّنان بتبرير جرائمهما بحثاً عن سلطة تجنّبهما عذاباتنا حصانة موبوءة بخزيهم. بلعت ريقي في محاولة لمنع معدتي من ترجيع ما بداخلها على وقع اعترافات متبادلة، أقلّ ارتكاباتها طعن إنسانيّتنا وحقّنا في حياة كريمة بعيدة عن أن تتلوّث بقبحهم وحقدهم ووجع سلطتهم..

يتباريان في تقيّؤ قذاراتهما، ويبرّران وحشية غرائزهما في النزوع إلى الحياة، واستبدال أدوارهما الحقيقية كآكلة لحومنا إلى ضحايا واقعنا، وكأن على المظلوم أن يتحرّر من ظلمه، ليصبح ظالماً يمرّر سكّين حقده الدفين على رقابنا، وينتزع ولاءنا المغرّر به، والمهيمن عليه.

تذكّرت عبارة تلك الإعلامية على الصفحة الأولى: «حرّيتنا المشروطة واعتقالنا المفتوح». أيّتها السيدة هذه ليست شروطاً وحسب، إنّها قيود لأرواحنا قبل حركتنا، أمّا اعتقالنا فهو ممتدّ منذ أن قبلنا ابتلاع مصطلحاتهم كحبّة دواء إجبارية حتّى يوم تنتصر إنسانيّتنا، ولعلّه يوم قريب، وقد زكمت أنوفنا بروائح فسادهم وإفسادنا.

عماد يتوسّد يديها، يتابع حكايته القذرة وإجاباتها المتضوّرة شبقاً.

رنين هاتفه يخرجه من بوح ذكرياته أمامها ليغادر حاملاً توهّمات قدر ظالم بمساره، وهي تسكن لحظات عشقها المسفوح على أقبية والدها، تذكّرت فجأة غيث، وبدأت بالصراخ غير المفهوم حتّى عادت إلى غيبوبتها.

القذارة ليست بالوراثة حتماً، لكنّها عابرة للأجيال أحياناً، وهذا لا ينفي أنّ غيث الذي لا يشبه عائلته بشيء، حتى شكله، تتعمّق داخله طيبة يوزّعها على أصحابه، حتّى صادف أنّه تجرّع لحظات موت فداء لصديقه أحمد، ذلك الشابّ الذي ارتكب جرم التعاطف مع زملاء له يصلبون على مذبح الحرّيّة.

سيّدُ الأقبية

مدّة طويلة مرّت على حادثة اعتقاله الثانية بعد مقتل صديقه أحمد، ما الذي دفع منى لتذهب إلى مكتب عماد اليوم تحديداً، ومَن ذاك الّذي تجرّأ على ابنها، وقد استقامت الأمور من جديد لوالدها، واستعاد موقعه في مركز الحكم بعد استبعاده سنوات طويلة..؟!

أين غيث..؟ لماذا تبكيه بحرقة..؟ سألت والدها الذي أطلّ بوجه مهموم وباحث عن تفاصيل ما جرى باختصار الحائر: «لا أعرف، وربما لا أتجرّأ أن أعرف أين ذهب ذلك المعتوه يستجدي عدلاً ضائعاً وحكماً ديمقراطياً يحلّ وباءه في ربيع حارق».

رنين هاتفي الذي صرت أخافه مرّة بعد أخرى يناديني إلى مكتبي، أدخله وعبق دخان سجائر ترتعد بين أصابع حامليها، عيونهم متوجّسة وكلماتهم صامتة، يلتفون حول شاشة التلفزيون كما حالهم حول وليمة رهان خاسرة دافعها متألّم ورابحها متهكّم.

أخذت مكاني بينهم، هو ذات المشهد الذي يربك والد منى فيدعوه ربيعاً حارقاً أو حملاً واهماً، داخلي يشتعل بحرارته، وبينما ألم الولادة لا يستثنيني، كان الحضور يبتلعون تعليقاتهم انتظاراً لبيان رئاسيّ يحدّد لهم مقدار تعاطفهم مع شعب تونس وحجم انفراجة شفاههم.

صمتهم حكمة لم أوفّق إليها، فتباعدوا وتوازعوا وتهاربوا، وصار مكتبي من جديد لي وحدي أتلمّس عبر شاشته عالماً من بشر يولدون من رحم الخوف والقهر، ويقطعون الحبل المشيميّ عند سرّة الحرّية.

وبينما تولد الإنسانية من جديد مستنهضة دواخلنا الميتة في تونس، كانت صفحات الجريدة تتلوّن بأخبار هوامش الحياة بعيدة عن جوهرها، وأهمّ ما تتناقله فضائيات العالم هو عندنا خبر غير صالح للتعليق. هذا ما ردّ به رئيسي المباشر معتذراً ومستغرباً تسرّعي في الحكم على رئيس صديق وحكم موالٍ.

ثلاثة أيّام والصمت قناعة الجاهل، ثمّ تبدّدت الصداقة وغاب الصمت لصالح الواقعة، وصار البوعزيزي رمزاً، والشتائم على زين العابدين التونسيّ فرض عين..

لم تكن الكتابات عن دعم الثورة التونسية تمرّ دون دراسة ما وراء الأكمة، فثمّة بوادر نشوة تتسرّب إلى نفوس الناس مستبشرة بزوال عهد الأبديّة، وهذا يجعلني من جديد أمام رجل أمن يسألني بكراهية عن أسباب فرحتي بتمرّد شعب على سيّده.

لو يعرف هذا الرجل أنّ لديّ من الأسباب الكثيرَ، وأنّ وجعهم يمتدّ من هناك، من تونس العاصمة الثائرة، ليصبّ هنا في دمشق المحاصرة بصمتها، حيث بيني وبين أن أصيح أنا بصوتهم ذاك السوط الذي يلوح به أمام ناظري، مداعباً أنامله تارة والطاولة التي بيننا تارة أخرى، وفي كلا الحالتين يقع صداه في قلبي موقع الوجع.

ابتسمت متواضعة: «يا سيدي أنا ألتزم ما ردّده القصر ببيان واضح الرؤيا».

يبتسم. يخرج من درج مكتبه صورة مقالي بتاريخ يوم جريمتي وانبعاثة البوعزيزي فينا، لحظات ويدخل فعليّاً إلى قلبي رهاب الأمن، لولا أنّ سيادة اللواء عماد صرخ بهاتفي من جديد، فانتشلني من تفاصيل كذبة لم يكن الضابط الذي يحقّق معي ليقنع بنصف ما أقول، ولا بربعه، ولا بما تقوله المرايا.

استأذنت أن أردّ على مديره، فاستدارت عيناه وتزمزم فمه: «سيادته..؟».

هززت رأسي مجيبة: «نعم».

جاءني فرج من الله، خرج صوته إليّ يزفّ انعتاقي وأنا أعطي هاتفي المحمول للضابط الذي وقف مقدّماً تحيته، وكأنّ أعين المتحدّث تراقبه من مكانها، سرقت وسط أجواء الرعب ابتسامة أتقوّى بها، وأنا أغادر باب مكتبه لأدخل تحت سطوة سيادته، سألني ساخراً: «ألم تزوري زنازيننا..؟».

استشعرت بتهديده يدخل جادة الممكن، فأخذت الحذر خشية الزلل: «لا أعرف سبباً يثقل قلبك عليّ، أردت فقط مساندة فقير على ضابط مستهتر».

كلماتي تتردّد من جديد بأجواء مكتبه، يقرأ من صورة لمقال كتبته بخطّ يدي: «الاستبداد وإن طالت أياديه مقصوصة بذنبه». ثمّ يضحك. يسرد. يتوقّف عند قولي: «الأمكنة جميعها في وطننا مدعوّة لتصديق ما بين يديه، إنّها دعوة حرّية حقّ فلا تكفروا إذا جاءتكم تستطرق أبوابها».

- مَن هي هذه الأمكنة يا سلام..؟

فهمت الآن سؤاله عن زنازينهم، وأدركت أنّ محاججتي فيما كتبت ستفيضهم علماً بما أريد أن أكون.

دار من خلفي، سألني عنها، فتذكّرت أنّني غادرتها على غيبوبتها بعد مغادرته لها، وهو لم يرجع إليها من جديد.

- كثيرون مثلك من زملائك؟

عضضت شفتي السفلى في منتصفها باحثة عن معنى آخر لسؤاله، غير أنّ عليّ الوشاية مقابل الحماية، عرضٌ لم يوارب في طرحه أبداً، بل قدّمه كعربون محبّة لجسد أذبلته الوحدة، فضيّعت معالم فرحه التي يمكن،

حسب وجهة نظره، أن يعيد بريقها إلى عيني ويجلسني على مكتب رئيسي المباشر أيضاً.

ترتجف وجنتي اليمنى أكثر من الأخرى، يتهاوى دمعي وتنكسر ملامح حرّيتي القادمة، إمّا على فراشه الموبوء بذكرياته أو بين بقايا رجولة مبدّدة ثمناً لما هو عليه..

أمسكت بقلادة عقدي، لثمت طرفها، استشعرت ببرودته تتسرّب إلى روحي، تركت له وجهي ليتفحّصه ما شاء، ورحلت أنا أستحضر وعود الإصلاح، وكفّ يد الأمن وإطلاق الحرّيات، وكلّ ما كتبته إعلامية في افتتاحيات أربع تحت اسم يلمع كالذهب، ويتلاشى كالضباب: «الإصلاح في سورية».

أواهمة هذه السيّدة أم مغيّبة أم تغيّبنا..؟ فأيّ رأي حرّ بينما تُنتزَع منّا حتّى حرّية الشراكة في السرير..!!

حرّية النفس المتصاعد وتأوّهات الرغبة المبتورة ابتلعت ريقي، استجديت بدمعي بقايا إنسانيّته التي عرّى فيها ضعفه أمام ذكرياته الموغلة إثماً. صوتي يغادرني مهزوزاً، أضع يدي على حنجرتي في محاولة يائسة لإظهار تماسكي وتجاهلي، الخيارين معاً. سألته عنها لأذكّره بنفق الذلّ الذي عبره بحضوري مارّاً بكلّ تقاطعات مراحل حياته من رجل المبادئ التي ساوم عليها عند أوّل مفترق حاملاً أحقاده الطبقية، ونزوعاً إلى السلطة والسوط معاً، إلى ذلك العاشق الموهوم بألمه وحبيبته، ثمّ الرجل المنزوع الرجولة والإحساس.

لعلّه قرأني جيّداً. مسح بإبهامه الأيسر شفته السفلى، ورسم ابتسامة ساخرة، وترك مسند كرسيه يهيّئ لظهره برهة من استرخاء مصطنع عبر نصف استدارة أبعدته عن مواجهتي، ليتركني أتأمّل ملامح وجهي المرتعدة المعكوسة من زجاج مكتبته المواجهة لي إلى يساره.

- لازلت أنتظر جوابك أو خيارك يا سيّدة الكلمة.. هههههه.. أهكذا يلقّبونك؟!
- أيّ خيار يا سيّد الأقبية وملك الزنازين..؟ أتسألني حقاً بين تعذيب جسدي أو تغييب ضميري..؟

لا أعرف أيّهما أكثر وجعاً لي وعليّ..؟!

وقعت داخل نفسي أتسلّقها لكن الخروج منها صعب، بل مستحيل: «أما من خيار آخر سيدي..؟».

ضحكته تحرّك سكون الليل الذي بدأت خيوطه تتسرّب من نافذة تطلّ على حديقة تعالت أشجارها، كمن يتسلّق ليختلس كلمة تقال أو يزرع عينا على شباك لا يرى.

- لا أريدك أن تكتبي تجربة الموت على جدران صمّاء لا تقرأ كلمات العابرين، بعضك يعجبني وبعضك الآخر مع الترويض سيشكّل علامة فارقة في زمن اللامعجزات، فامنحيني فرصة أن أكون عرّابك إلى المجد الموهومة به.

يهزّ برأسه داعياً رغباتي الصغيرة أن تحاصرني، بينما يبقى متّسع في قلبي لممرّات مواربة، لم أعرف كيف تسرّبت أنا إليها، ودخلت في استفاقة لحلم نام عشرين عاماً بين أوراق صحافية وأروقة أمنية، ربّما يكون أوانه اليوم..!

رنّ جرس مكتبه. دخل حاجبه الأنيق بحذائه الأسود اللمّاع، أشار له بالاقتراب، ثمّ قال له: «صحافيّتنا ربما جاعت، وسهرتها طويلة». حرّك الحاجب رأسه ثمّ غادر، وهو يقول: «ربع ساعة سيدي..».

رفع سماعة الهاتف مجيباً، كان ينظر إليّ من تحت كلماته المدوّية، وهو يقول: «أريدهم قططاً تموء وكلاباً تعوي أمامي».

لم تمضِ أكثر من دقيقتين حتّى انفتح الباب، وتدافعت عبره ثلاث شابّات إحداهنّ بحجاب كان حين اعتقالها أبيض، وأربعة

شباب كأنّهم خرجوا في استراحة من موت عابر، أيديهم مقيّدة حتى النزيف. تراجعت إلى زاوية الكرسي الذي بدا وكأنّه يهرب من تحتي، بينما يركل ضابط رفيع مؤخّرة شابّ منهم، وهو يعرف سيادة اللواء عماد به: «هذا النصّ النصيص زعيمهم الذي يحرّضهم على القراءة الثالثة يا سيدي..».

نظر عماد باتّجاهي سائلاً: «ما هي القراءة الثالثة يا مثقّفة..؟».

أطرقت رأسي مستجمعة صورهم السبع، وقد تلوّنت بالأحمر حتّى الاحتراق، ثمّ أدار وجهه إلى الشابّ سائلاً أن يشرح التهمة الموجّهة له من سيادة العميد زهير، كان يرغب الشابّ على ما يبدو بالإجابة، لولا أنّها تحتاج إلى فم قادر على فعل شيء آخر غير النزيف وتقيّؤ أسنانه المتناثرة في فمه.

طلب من المحجّبة الردّ فاختنقت بصوتها الآهات المتوجّعة دون صوت، فتحت كفّيها في محاولة لكتابة إشارة استفهام، لكنّها فشلت لقسوة القيد المحكم على معصميها.

ذهبت إلى ذاكرتي الدرسيّة في النصّ الأدبيّ، وكيف يمكن للقارئ أن يكون هو المعنى المضاف للنصّ، ولكن ما علاقة جهة أمنية بالنصوص الأدبية وتنوّع معانيها، مع تنوّع الزمان والمكان والقاموس اللغويّ للمتلقّي. نظرت إلى عماد الباحث عن إجابة تضعه على خطّ التواصل قبل أن يلقي أمامي خبرات عمره في فنون انتزاع اعترافات المتّهمين، تحرّك من خلف مكتبه ليقف إلى جانب من ادّعى الضابط أنّه زعيم هذه العصابة من الطلبة الخطيرين على أمن الدولة، أمسك بغرّته، شدّ رأسه إلى الخلف في محاولة منه لتجنّب تلوّث يديه بالدم المتدفّق من الشاب، ثمّ أماله إلى الأمام والخلف لمرّتين. بصق بعدهما المتهم ربما طحين أسنانه وتلعثم بكلمات: «أنا طالب دراسات عليا ولا أعرف لماذا أنا هنا..».

تدخل هنا الضابط ليقرأ محضراً بين يديه: «سيدي ألقي القبض عليه متلبّساً مع هؤلاء، وهم يتداولون معنى إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابدّ أن يستجيب القدر، وكان هذا يطلب منهم أن يستفيدوا من هذا الكلام وأثره في نفوسهم، لإعطائه معنى يتناسب وإرادة الفعل المتمثّل في حاضرنا اليوم».

أفلت عماد شعر زعيم العصابة بحركة سريعة انقلب فيها الشابّ أرضاً، فوضع حذاءه على رأسه سائلاً: «وماهي يابن الزانية إرادة الفعل المتمثّل في حاضرنا اليوم..؟ كيف يمكنكم يا حثالة أن تجعلوا القدر يستجيب لكم؟!».

تدخّلت إحداهنّ معترفة بذنب تباحثهم في دلالات النصّ، لأنّ واقع دراساتهم العليا يفرض ذلك وأنّهم ينفّذون مطلب أستاذهم المشرف عليهم.

نظر عماد إلى الضابط المتقاعس عن أداء مهمّته صارخاً بوجهه: «أتأتي بالعصابة وتترك زعيمهم يخرب في أرجاء الأرض..؟ أريده أمامي لأعطيه درساً في إرادة رجال الأمن وقدرتهم في الفعل الحقيقيّ لسحق مجموع إرادات حثالة الشعب أمثالهم. اذهب بهم إلى الجحيم بينما ينضمّ إليهم زعيمهم بالشكل الذي يليق به».

بينما غادرونا وعماد يقف مكتوف اليدين يتنفّس بعمق ويغرز نظراته على الأوراق الموضوعة أمامي، لامستها بأصابع تصطكّ كأسناني، حملتها ووضعتها فوق حقيبتي وسألته: «ماذا أكتب سيدي..؟!».

- «مَن معك في الإعلام يريد لإرادة الشعب أن تحضر بيننا..؟».

رفعت كتفي مقسمة بأنّني لا أعرف إجابة عن سؤال ملغوم برصاص متفجّر يطيح برؤوس جميع الشرفاء من زملائي.

- لازلت أريدك أن تفهمي أنّه لا يمكنك أن تكوني كهؤلاء، هم أصلاً لن يسمحوا لأمثالك العيش بينهم سيقتنصونك ككافرة يجوز ذبحها.
- مَن هؤلاء سيدي الطلبة الذين يبحثون في أثر النصّ وتفاعل القارئ..؟

شعر بكلامي يقلّل من أهمّية استنتاجاته الذكية، فعاد ليرتسم كمتثاقف يشرح لي كيف أنّ هؤلاء مجموعة سلفية ستفرض منطقها على حياتنا المدنيّة، مستشهداً بحجاب الطالبة، متجاهلاً وجود طالبتين سافرتين وجدتا بساحة الجريمة أيضاً، ولو أنّه أزاح غشاوة التهم الجاهزة لرأى صليباً محفوراً عند نهاية معصم الشاب الملتحي الغارق بآلام كسر يتورم بقدمه التي يحاول أن يسندها ليسحبها أمامه. لكن هل أواجهه ليحوّل وجهي إلى خارطة ألوان يصعب تمييز تداخلاتها كما تللك الشابة وقد استسلمت لشعر أظنّه انتزع على يدي ذلك الضابط قبل أن يكيل لها حزمة من التهم المضحكة حتّى البكاء.

- من المؤكّد يا سلام أنّك عرفت حجم معرفتنا بتفاصيل همسات كلّ مواطن سوريّ حتّى داخل حمامه الشخصيّ، فكيف عندما يكون في مؤسّساتنا أو على مقاعد جامعاتنا أو بين أزقّة أحيائنا أو عبر أسلاك هواتف الاتصال..؟

انبعاثات الصبح القادم لم تستأذنه بدخول مكتبه، سألني: «أترغبين بقليل من النوم قبل متابعة حوارك..؟».

لم ينتظر جوابي وقف وتمطمط، وقفت فأخذني بيده من ظهري، ومشينا حتّى سيّارته مرافقين بالعديد من الحرس المتأهب لعدو يختبئ في زاوية ما تدافعوا لتأمين المكان، وضابط تسمّر عند باب مكتبه، لاشكّ أنه يستعيد الآن ذاكرته في تفاصيل تحقيقه معي. سألني أن أستقلّ السيارة معه فيعرف قراري في الطريق.

على مقعد خلفي خلعت عقلي لأرتدي أوهامه وترّهاته عن مؤامرة كونية تحاك للمسيحيين والأقليات، ليس في سورية وحسب، وإنّما في كلّ بقعة تستصرخ من ظلم حاكمها. نعم فصليبنا يحمله الطغاة على أكتافهم، بينما يمكن أن نتعثّر بلفحات الحرّية المنشودة. وحاول أن يولجني نفق الذل عبر نهار طويل في مكتبه وملامح فجر يتسلل إلى نوافذ غرفة نومه ونصف ساعة من عذابات رجل أراد أن يختبر ذكورته المغادرة دون رجعة.

سألته عنها. شيء ما تحرّك بداخله، أعاد سؤالي إليّ: «أتعرفين لماذا جاءت تلك الليلة إلى مكتبي..؟».

حاولي سلام أن تسأليها ماذا تريد فأنا لا أقوى على لقاء آخر أستبيح خلاله ماض أريد نسيانه.

- لا لا عماد أخشى أن تظنّ بي الظنون فأقع تحت وطأة انتقامها.

قهقه عالياً وهو يمسك رأسي بكلتا يديه: «ممَّ تنتقم..؟ لأنك شربت بقايا كأس منتهي الصلاحية..! لعلك تسمّمت بفساده أم لأنّها لم تترك بي مساحة لذكرى امرأة أمسح من على جسدها عصير رجولة كاذبة..؟!».

رنين هاتفي يفزعني كالعادة فأختطف نفسي من بين يديه، أهمس: «رقم خاصّ يا إلهي ماذا يريدون منّي..؟» أضع الهاتف على طاولة مجاورة، أحاول أن أتجاهله، فيحمله، يقرأ: «رقم خاصّ». يضغط بإصبعه زرّ الردّ، ثمّ يسمح للصوت أن يعبر إلى كلينا: سلام أتسمعينني لابدّ أن أتحدّث إليك، حقيقة غائرة بنفسي أريدك أن تعرفيها، أرجوك بعض وقتك قد يختصر كلّ وقتي. أشار إليّ برأسه بالموافقة، جاهدت نفسي وأنا أقول: «ألو منى نعم..» جاءني صوتها المنكسر: «أرجوك نلتقي اليوم، أنتظرك».

ثمّ غابت في الماضي تركته لها يتماهى داخل جسدها، يشرب جسدها حبات عرقه المتساقط مطراً وخيانة وهي تستزيده، صرخاتها تملأ المكان وحده جورج يغادرني بلا رجعة. صوته يعيدني إلى حاضري، أشعر بها كأنّها تراني اليوم على فراشها، أردّ لها صفعتها برصاصة تقتل فيها ماضيها. ها هو حبيب تبحث عنه بين أسرّة عشاقها وتحت ملابس رجالها، ماذا لو رميت لها هذا الجسد المتخاذل حتّى عن معانقة حلم أو مغازلة نشوة عابرة..!

- سلام اذهبي إليها ابحثي عن سبب زيارتها، ربما نتجاوز هذا الماضي، فلديّ من مشاغلي ما يكفيني ولا تزوري مكتبك قبل أن أخبرك وننتهي من خزعبلات الحرّية الموهومة.

توجّه إلى الباب مغادراً دون أن يلتفت. صوت الباب أفزعني، ودرت في متاهة المكان الفسيح، نسيت أن أسأله، وأنا أغادر، كيف أتصرّف مع كتيبة الحراسة المركونة أمام البيت، وأين تركوا سيارتي التي فتشت كمتّهمة بجريمة التظاهر مع البوعزيزي هذا الرجل الذي لا أعرف أعليّ أن أحبّه كمكتشف النار، أم أكرهه لعذابات كان يمكن ألا أمرّ بها..؟ وكثير من زملائي المتعاطفين المنتظرين شبيهه في مكان آخر وآخر وآخر..

يدخل من جديد، يوضح لي أنّه ترك لي سيارة وسائقاً وسيراني مساء لأسمعه تفاصيل زيارتي المرتقبة، والتي قد تكون قابلة للانفجار بوجهي، وأغلق الباب بينما كنت أنتفض رعباً واستياء ولا مبالاة..

على باب قصرها الملتحف بياسمين دمشقيّ معتّق اختصرت عمري الذي مرّ على شوك شبقها، كيف أسند رأسي ليبقى محمولاً على

جسـد يرتجـف..؟ فتحـت حقيبـتي أتأكّـد مـن بقـاء ملامـح وجهـي في مكانها، لمحت احمراراً يميل إلى زرقة عند أسفل أذني بمحيط رقبتي، فأعدت ربطة عنقي لتكون ستراً على نهار وليلة ونصف ساعة مكلّلين بالفشل، إلّا اللهم بعض أدلّة تدينني ولا تنصف فشلي. قرعت جرساً بموسيقى أعرفها، رقصت مراراً على أنغامها، وجورج يحملني بين ذراعيه عاشقاً لا تأتيه الخيانة من أمامه أو خلفه، أتراه زارها هنا في بيت والدها..؟ أسمع موسيقاها فتعلّق بها وعلّقني..؟! أيّها الجرح لماذا لا تندمل؟

مشيت إليها أعبر حديقتها أمتلئ بجمال ما فيها من زرع وتماثيل، وصلت مدخل سكنها حيث تنتظرني، سرت إليها كما الذاهب إلى حكمه، سواد ثيابها الممشوق بفتنتها ورائحة عطر يفوح منافساً ما حولها من أريج أزهار تتلوّى بردا كانونيّاً، لكنّها هذه المرّة لم تعتلي كعبها العالي، واكتفت ببضعة سنتمترات لا تتجاوز الثلاثة، يغطي مخمل حذائها ساقيها اللتين اعتادتا التعرّي حتّى بدايات أفخاذها، لكنّها حين أخذت خطوتها الأولى نحوي، تكشّفت فتحات تنورتها عن بياض يموّهه سواد شفّاف لجواربها. هي منى كما عهدتها تستر أشياء لتلوّع الناظر بأشياء أكثر عمقاً وإثارة..

أقبلت تغمرني بقبلاتها وتهمس آسفة: «يا حبيبتي آسفة». بينما انتزعني البرود منها، وكلّ ما استطعت أن أجبر جسدي عليه انفراجة ترسم شبه ابتسامة رضى وهزّة متكرّرة برأسي. دخلنا إلى بهو القصر المزدحم رسومات وفنون وبهاء عزّ سلطويّ، اخترت مكاناً غير الذي اعتدت سابقاً أن أجلس به، كانت لوحة جدارية كبيرة تقابلني، فقالت لي: «هذا مكان والدتي رحمها الله، تلك لوحتها التي تحبّ، وهذه أريكتها». تحرّكت لأغيّر اتّجاهي، فطلبت أن أجلس، قالت: « أمي

منحتني غيثاً مرة وأظنك ستمنحينه لي ثانية، ليس أغلى منك ليجلس مكانها». غصصت بسؤالها كيف منحتها أمّها غيث، لكنّني كتمته احتراماً لدمعها الذي تقاذف فجأة أمامي. جلست صامتة أنتظر كلاماً يجيب عن أسئلة تكاد تملأ المكان، بدءاً من ذلك الوجه الملائكيّ الذي ينظر إليه رجال عراة كإلهٍ.. يا إلهي ثقافتي حول فنّ عصر النهضة لا تسعفني أبداً.

- «كيف تعرّفت إليه..؟»

هذا سؤالها الأوّل الملغوم بغيرتها، تجاهلت ما فهمته، وسألتها: «عمّن تتحدّثين..؟». قالت: «عماد». هززت رأسي: «تقصدين سيادة اللواء الذي قابلتني بمكتبه..؟».

- نعم.
- كان قد استدعاني للتحقيق حول قضايا إعلاميّة..
- كيف عرف بمذكّراتك عنّي..؟
- مذكّراتي أنت عابرة بها وليست عنك.. لا أعرف لكنّني فوجئت أنّه قرأها. أعتقد أنّ هذا ضمن محاولته معرفة من أنا ليس أكثر..؟!
- سلام أنا أعرف حجم الألم الذي سبّبته لك.

قاطعتها: أرجوك لست اليوم بصدد المراجعة والمحاسبة، شأن انتهى. أنا أسمعك سيدة منى بعيداً عنّي وعن جرحي لو سمحت.

- لا أستطيع فجرحك ارتداد لجرحي المزمن، لم أتقصّدك، لكنّه المرض يسكنني. لم أعاشر رجلاً يوما بنية تدميره وإنّما لتدمير ذاكرتي الممتلئة بعماد. أردتهم أن ينتزعوا بأجسادهم جسده مني. فزاد هو مساحة بنفسي. أردت أن تستجيب رغبتي لفنونهم، فيرسمون مشاهد تنسيني وقائع مآثره عليّ، هنا ترك

قبلة أتلمّسها حتّى ذاب جلدي، وهناك وقع بعض مائه فأتذوّقه بأطراف أصابعي، أصبحت آكل جسدي رغبة بتذوّق جسده المنطبع على كلّ خلايا جسدي. عندما تحدّثت أنت عن جورج، أتذكرين كيف وصفته لي: «هو ملاك يحرّكك نشوة ورغبة يزرع فيك حبّه وتجنيه ارتعاشةُ تسكنك جنّة يأخذك إلى زوايا نشوة لم تعرفيها كّل مرّة، ويشربك نبيذاً». لم أكن مع جورج حين رأيتني، كنت أبحث فيه عن عماد الذي وصفته أنت دون أن تدري، لكنّه لم يكن هو، كان يشبهه لكنّه يختلف في تفاصيل وحدي أعرفها..

لا أعرف أأضحك ممّا تقوله مني أم أتجرّع ألمي..؟ لو تعرف أنّ عماداً ليس إلّا خيالاً تتوهّمه وصورة رجل بجسد ميت متآكل حتّى إحساسه.

تابعي أيّتها المدفونة بماضيك والقاتلة لحاضري ومستقبلي..

- عماد كلّ ذاكرتي وكلّ ما أنتظره من مستقبلي، هو لا يعرف أنّني أعيش تفاصيله من لحظة لقائي الأوّل حتّى آخر ما أريده لمستقبل ابني غيث.

تغصّ بالبكاء..

- غيث لم يرجع منذ ذلك اليوم. ظننته في مكتب والدي. أقصد سابقاً. كما حدث لكنّه حدّثني، طلب منّي ألا أبوح بغضبي، فبعضه يحبّه والآخر قد يشعل الأرض من تحته، غيث رحل أشكّ أنّه سيأتي، نزعني عنه وارتدى حرّيته، مزّق ثوباً مستعاراً كبّلته بأكمامه ومشى عارياً من أكذوبة نسجتها وردّدتها حتّى صدّقت أنّ خيوطها حقيقية. غيث يعرفني كما

مرآتي قبل ارتدائي أقنعتي ومساحيقي وعطوري، لا يختلف بوصفه لي كثيراً عمّا فاح من عفن رائحة عهري بين سطور ذكرياتك عنّي. ربّما حقائقنا مكشوفة حتّى الاعتراف وكلّ ما عليكم هو أن تكتبوها بلغة الذكريات لتتجنّبوا انتقاماً سلطويّاً قد يقتل فيكم الحياة. شاهدته يعبر عمري طفلاً جميلا ثم مراهقاً ضجراً، وبعدها شاباً يتوارث قيم والده وتعابيره الثورجيّة.

قطبت حاجبي: أأمجد ثورجيّ..؟!

خانتني نظرة استغراب تكذيبية فداريتها بسؤال عن صحّة أمجد وعمله وكيف هي علاقتها به؟!

أغمضت عينيها وكأنّها تستحضر روحه الغائبة. فجأة على عجل ألقى أمجد تحية جماعية ثم تجاوزنا إلى مكتب والدها يلحق به من يحمل حقيبته، ثمّ يسبقه ليفتح الباب ويسنده، لم تعلق ببنت شفة، وسألتني عن شرابي منادية للخادمة الأجنبية التي وقفت قبالتنا تسمع تعاليم سيّدتها وتنحني لتنصرف إلى قدرها.

- هل الأفكار عابرة للأجيال؟

جاءني سؤالها غريباً فرفعت حاجبي أستوضح. قالت: أيمكنني أن أردّد ما كانت جدّتي التي لم أرها أصلاً تردّده على مسامع والدي؟!

وجدتها جادّة في سؤالها وكأنّها تستعرض حالة مَرضيّة أمام طبيب هو ملاذها لشفاء من علّة.

- غيث يقول إنّ الانفجار قادم وإنّ الحقائق المزوّرة لا تصنع إلّا تاريخاً للأغبياء فقط.

- وماذا يقول والده بصدد ذلك سيدتي؟

- كان يقول: نصركم المزيّف صنع بطولاتكم الوهمية ورموزكم الخيالية ورؤوسكم المحنية..

أمجد ابن اللواء صانع الأمجاد يقول هذا بينما يموت أحمد تحت التعذيب في زنزانة تتقيّأ ذلاً وهوانا لمطالبته بالعدالة الاجتماعية..؟ أي عجائب نعيش..؟! وكيف يمكن لشريك يبتلع مقدرات البلاد، ويتحكّم بأنفاس بنيها أنّ يرى رموزها خيالاً وانتصاراتها أكاذيب تستعبد البشر..؟! وماذا عنه وعن المنقذ الاقتصاديّ الذي يتوهّم أنّه يمسك بذراعيه توازن البلد..؟ لا شكّ أنّها تهذي وأنّ توهّماتها مرض ربما لا ينفع معه علاج..

أيّتها المنتفخة سلطة حتّى الاعوجاج أتتوهّمين ابناً أم حديثاً أم تخترعين عالماً تعيشين به مرضك وتوهّماته..؟!

أدركت وأنا أتململ سماع هذيانها أنّ ما جاء بي إلى هنا هو استيضاح أمر واحد، لماذا ذهبت بتلك الليلة إلى مكتب عماد، ربما هي غيرتي منها كماضٍ يعشّش بذاكرة رجل استمالني حتى الاندفاع وراء عجزه وخيبته بحثاً عن دواء أم أنّه التشفّي منها واسترداد أنوثتي التي طعنتها بداخلي يوم جعلتني أمام جورج خياراً قابلاً للتخلّي عنه، وآن لي أن أكون اليوم خياراً يتمسّك به عماد دونها..

قاطعت كلماتها المتداخلة وهذيانها: لماذا ذهبت إلى مكتب عماد ذلك اليوم وأنت تجهلين هوية شاغله..؟!

أوقف سؤالي تدفّق توهّماتها. وضعت يدها على رأسها وأبعدت نظرها عنّي. يدها الأخرى تبحث عن ركبة ساقها، وهي تتجاوز لحظتنا الراهنة لتعود إلى حزنها وصرخاتها ذاتها التي سبقتها إلى باب مكتبه: يا إلهي غيث رحل ولا أعرف عنه شيئاً.. ظننته كرّر اعتقاله لكن والدي أخبرني أنّه رحل مع صديق تاركاً رسالة وداع فيها عبارة واحدة أفهمها

جيداً ربّما أعود وفيها ما لا أدركه: «مع نسمات حرّية أولد منها رجلاً..».

التفتت إليّ فجأة كأنها استعادت نفسها خلعت عنها ملامح أمومتها، وارتدت حقيقتها الشبقة، اقتربت لامست أصابعها وجهي. هي تتفحّصني بمنظارها الأنثويّ تحاول أن تجمع أدلّة تركها عماد مزروعة بين سريره وجسدي، تكاد تعصرني لتخرج من خلايا جسدي عطره وبعض حبّات عرقه، شعرت بها تفكّ زرّ قميصي، فجفلت منها، تراجعت خطوة إلى الوراء، ودفقات دمي تهدر في أذني، تدوّرت عيناها، ردّت شعرها المصفّف إلى خلف أذنها، ابتلعت سؤالها وأخرجت بعض كلمات توحي به: «أشمّه فيك تاركاً أنفاسه عليك».

هززت رأسي أنفي. تهمة بدت قد أطلقت فيها حكمها، وأنا أتراجع إلى الوراء بحثاً عن منفذ يحملني خارج أسوار شهوتها إليه، وبعيداً عن مدى وحشية انتقامها. خطواتها تحاصرني، ورعبي يربكني.

- أعرف كيف يسقي جسدك القاحل.. هل علّمك سرّ خلود النشوة..؟!

وبين هل وهل آلاف من وعيد مستعرة، لمحتها تختطف شيئاً بين يديها من داخل صندوق خشبيّ اقتسمت به أرض صالونها الممتدّ عشرات الأمتار، وحده خروج أمجد من مكتب والدها منحني القدرة على أمل مغادرة مصيري المحكوم بانتقامها، سألني قاطعاً تنهّداتها: «أتعتقدين أنّ زين العابدين سيتنحّى..؟».

سارعت لأقترب منه حاملة حقيبتي ليصبح ساتراً يفصلني عنها، قلت: «إرادة الشعوب أقوى من طغيان الحكم». كلماته خائفة ومعانيها مهزوزة.

فـردّت مـنى: «هـذيانكم إلى الجحـيم وأيّ شـعوب تقصـدين..؟ الشعب نحن والسلطة نحن».

كـان زوجّهـا المـدجّج بـأكثر مـا يسـتطيع جمعـه مـن أوراق مشـغولاً بترتيبها بين يديه، وقد سبقه خارجاً سائقه حاملاً ضعف ما تتحمّله يداه من ملفّات وعلب مرصوصة لفتتها: «أهذه سبائك أبي..؟».

ابتسـم لهـا: «هـو طلبهـا منّي». وأشـار إلى تحفـة صـغيرة علـى طاولـة دائرية انزوت بركن من الصالون، وقال: «يريد هذه أيضاً».

سارعت إليها: «لكنّها أغلى ما في البيت من تحَف؟!».

رسم علامة استفهام بشفاهه: «تقول أوامره..».

انقـضّ عليهـا كغنيمـة حـرب، وهـمّ بـالخروج، فسـبقته إلى البـاب، أستنجد الهروب منهـا وتنفّسـت هـواء الحيـاة، وأنـا أعـبر نظراتها المتوعّـدة، بينما هي تستعدّ لتلقّي نبأ هروب زوجها بمال أبيها وتحفها..



القراءة الثالثة

القراءة الثالثة والرابعة والألف، ابتعدوا عن رأسي. لو كنت أستطيع تفهّم قراءاتكم لكنت اليوم رجلاً يزرع داخل رحم امرأة وريثاً له.

سأسحق ورثتكم وأحوّلكم إلى وهم من الماضي، لن يستعيد أحد منكم ذكرياته، سيكون المستقبل لنا وحدنا، نحن كتبة النار وأبناء هذا الحكم النازيّ.. هههههه.. نعم، أعرف أنّنا النازيّون الجدد بطباعنا. سنحرق مَن يختلف عنّا برغباتنا أن نكون أسياد الحاضر والمستقبل، هذا يعني أن نسلك طريق الموت الذي ينتظركم كلّما تفتّحت أذهانكم وأنجبت أرحام أمّهاتكم من غير العبيد.

انتفض من نومه يبحث عن ملجأ يؤوي إليه بعيداً عن حقده الأعمى، ملتحفاً بوهم حبّ انسال من بين جنبات كتاب ذكريات صحفية مجروحة بالسلطة الأمنية، قبع داخل صفحاتها طويلاً، حمل هاتفه، ضغط على رقمها واستعدّ ليفتح لها باب مستقبلها، بينما أغلق زين العابدين بهروبه حكاية من حكايات القمع الوحشيّة، ووارب الباب أمام استئصال حكم الوراثة الجمهورية في مصر التي تستعدّ لولادة عسيرة..

على وقع ذكرياتها المشبعة بغرام جنونيّ بين عماد ومنى وماضٍ قريب لم تعرف من حبّه إلّا دموع الهزيمة تبلّل جسدها بدل مائه الرجوليّ.

على وقع انهماره بين يديها، رقصت على أحلامها السلطوية، هنا وقّعت قرار استسلامها وعلى سرير ينام الذلّ بين جنباته تسلّمت

نفحات سطورها المحبّرة بالطائفية مبعدة إلى غير رجعة كلمات من محبّة، وحروف من نور يتغلغل بها عميقاً يزرع داخلها انتصار الغابة على الإنسان.

لمساته التي ترتجف خوفاً، وهو يدور حولها حاملاً سلاحه مهدّداً حياتها ويحاول أن يوقظ أحلام رجل نامت بين زنزانة ولهاث مفجوع لبقايا إنسان تشرّدت طموحاته ليحطّ رحاها في سرير ضابط منزوع الغريزة الجنسيّة.

وحدها دموعه تناثر بعضه الدفين على جسدها العاري ويواجهه مذعوراً منه. عماد الذي ينهض من الماضي ويسأله: أين دفنتني..؟

يباعد بين ثدييها، باحثاً عن خيال له مرّ من هنا، وترك بصماته الضائعة. صرخت ألماً من عصره لها بين براثنه.

يشتم جسدها ويصرخ بها: من دفعك للبحث عن الحرية،من معك، مع من تآمرت علي..؟

- عمن تبحث..؟
- أين هم..؟

تبكي، تحاول أن تبعد ثقله الجاثم على جسدها. يشتدّ عنفه، تعلو آهاتها واستغاثاتها تنبت داخله، يضربها حتّى انبجاس الدم من جروحها. وما تزال رجولته تخذله، يلقي بكلّ ما يحفظه من شتائم عليها، يحوّلها من ملاك يسطّر لها طريق الجنّة إلى عاهرة يستبيح قتلها فتتهاوى بلا حراك، مستسلمة لغد تجلس فيه في مكتب تلك الإعلاميّة التي كثيراً ما أرادت أن تكون هي. وكلّما قرأت لها تسأل: «لماذا لا أكون أنا قد كتبت هذه الكلمات الطيّبة من أجل هذا الشعب الصابر..؟!».

رأت نوراً يذهب بها بعيداً يضعها في مواجهة لم تفكّر يوماً بها، وبينما تمدّ لها تلك المرأة يدها لتنقذها كانت سلام تستمتع بمشاهدة

الإعلامية الكبيرة كما تصفها تخرج دون رجعة من مكتب صوّرته بمخيّلتها قصراً منيع الأسوار عصيّ الأقفال، لكن عبر هذه الجلسة ستكون مفاتيحه في سلسلتها الذهبيّة إلى جانب مفاتيح السيّارة الفارهة التي وضعها عماد تحت تصرّفها بسائق ومرافق وبضعة ألوف من الدولارات لشراء ما يليق من ملابس لحفل تنصيب قادم.

وهي تصعد ظنّاً منها إلى حيث الحلم، كانت قد أفلتت من يديها كلّ مفاتيحها، ووحده مفتاح مقبرة في شارع بغداد بقي معها.

سرى الموت فيها كسرَيانه في رغبته المقهورة التي أدرك أنّها سترافقها إلى مستقرّها الأبديّ. صمته الطويل ورائحة الموت تتسرّب إلى أنفاسه ساعة بساعة. دخل أحد مرافقيه والقلق يعلو وجهه: «سيدي. سيّدي.» أمسكه من ذراعيه شدّ شرشفاً عليه ليستر عريه الفاضح، وهزّه بعنف. «سيّدي».

استفاق عماد من ذهول اكتشف أنّه دام ليلة وبعض نهار ليجد نفسه كالعادة يعلوه مرافقه الذي يستكين لشذوذه بفعل الخوف والاعتياد، ثمّ يغادر منزله باحثاً عن رائحة تطهّره من أنفاسها الحالمة بين يديه حتى موعد موتها غير المدبّر.

لم يلتفت عماد إلى جسدها وهم يضعونه في كيس قمامة إلّا لحظة قول أحد الحراس:

«أين ندفنها سيدي..؟».

استوقفه صليبها المزروع داخل حفرة عنقها قائلاً:

«حقّقوا رغبتها في إقامة طويلة إلى جانب والديها، ولأجل غير مسمى، فقد اختارت ألا تدلي بما لديها من معلومات حول خونة أمثالها يبحثون عن الحرية».

وأطلق العنان لنصف مشروع ضحكة، ثمّ غمز أحدهم وأطلق إصبعه تجاهه أن افعل المطلوب.

تلمّظ بدماء ضحيته وهو يعبر طريقه بين الأشجار الملتفة على جانبي مدخل منزله وقد نكست أوراقها تحية لروح غادرت المكان للتوّ

صار للقتل عنده طعم خاصّ مبلّل بدموع مهزومة الرجولة، وهو يمرّ عبر حشود تحتفي بتنحّي الرئيس المصريّ حسني مبارك تحت ضغط أحرار ساحة التحرير وتكاتف الجيش الوطنيّ هناك.

رسم ابتسامة على زواياها خارطة طريق للأيام القادمات سأل سائقه لمَ علامات الفرحة تغرق وجهه حتى يكاد لا يعرفه..؟

قال بعفوية: «سيّدي سقط النظام».

وقعت عبارته في نفس عماد كنار التهمت جذوره المتعفّنة.

– أيّ نظام أيّها المعتوه..؟

لكن قبل أن يستوعب الفضاء الرحب داخل سيارته الفارهة إجابة السائق العفويّة: «المصريّ سيدي»، كان قد أصبح ضحيته الثانية. واحدة بسبب عجز جنسيّ وأخرى بسبب عجز فكريّ، وبدأ عدّاد الموت يتهيّأ لسباق يبدو توقّفه مستحيلاً مع بزوغ انعتاقات الخوف القادم من رياح ربيعية عابقة بزهر الحرّية المأمولة.

داخل قاعة يتلصّص منها على حكايات الناس عبر تقارير أمنية ترصد حتّى أحلام شابّ مراهق يعجز عن إقناع فتاته بساعة غرامية. تجاهل وجهاً خبره جيداً أيام شبابه سائلاً عن جدوى الاستعانة بمستحاثّات أكل عليها الدهر وشرب، لكنه لم يستطع أن ينكر إعجابه بمقترحاته الأمنية، وهي التي حوّلته فيما مضى من مناهض للنظام إلى أحد أعمدته. ضحك في سرّه وهو يتأمّل وجه حبيبته منى من خلال قسمات وجه أبيها، استمع إليه باهتمام شديد وهو يرسم في مخيّلته خارطة طريق تضع الربيع العربيّ على هاوية عاصفتهم الأمنيّة التي لن ترحم كلّ من يحاول التظلّل بفيئها.

أهازيج الانتصار برحيل الرئيس المصريّ لم ترق للضبّاط، ليس حباً بالرئيس المتنحي تحت طرقات الشارع الثائر عليه حسني مبارك، لكن لما يمكن لهذه النشوة الشعبية أن تحمل من مدلولات مستقبلية.

ابتسم اللواء المتقاعد أبو حيدر وهو يتفنّن بانتقاء عباراته الأمنية: «سنوقع بأعدائنا قبل أن يجدوا مكاناً لفرحتهم في شوارعنا، هذا بالون اختبار نعرف من خلاله خبايا النفوس».

كان يقول ذلك مشيراً إلى الصحيفة الرسمية التي تتزيّن مانشيتاتها بعبارات تزيّن للشعوب حماقاتها، حسب تعبيره، لافتاً إلى ما ورد في افتتاحية الصحيفة من أفكار عدائيّة لحكم الوراثة الجمهوريّ، تحت وهم إقناعنا أنّها تقصد النظام المصريّ.

تأمّل عماد الصحيفة. صرخ بحاجبه، واستدعى قسم الدراسات الأمنية إلى مكتبه، مستأذناً بمغادرة قاعة الاجتماع التي ستبقى في حالة استنفار طويل الأمد.

في الممرّ الواصل بين القاعة والمكتب ثمّة أصوات تتناهى إلى سمعك أشبه بعويل ليليّ لم ينقطع حتّى أصبح أنيناً متقطّعاً غير قادر على استمراريّة الشكوى، شدّه شغفه إلى مشهد دمويّ قاده أن يسأل عن مصدره، حيث كان مكتب العميد زهير الذي وقف قبالته مزهوّاً بسمعته الوحشيّة. ابتسم مُطمئناً اللواء عماد: «إنّهم حفنة من الإرهابيّين قادهم قدرهم السيّئ إلى هنا سيّدي».

أدار وجهه نحوهم، ازدادت سرعة تنفّسه ورأسه يأبى الركون إلى الثبات، انتقل بنظراته إلى العميد المنفرج الأسارير، وهو يتمتم بسؤاله: «أليسوا أطفالاً؟!». لكنّه سرعان ما عاد إلى وعيه السلطويّ: «الإرهاب لا يعرف عمراً يبدأ منه..؟!».

آلام محمّد الصغير الذي يختلط لونه بدمائه جعلت من عيونه تلمع حتى كاد عماد يظنّها قطعة من زجاج ملوّن اختلطت بها كلّ ألوان الحقد عليهم، وتساقطت دموعه كبرياء وعزّة، أصابعه النازفة ترتجف، بينما يبقيه الحبل المشدود إلى سقف المكتب واقفاً كشجرة يغازلها ريح الجنوب الأشمّ، سأله:

«كم عمرك؟».

أجابه: «في الصفّ السادس الابتدائيّ».

ردّ العميد على السؤال المتوقّع:

«سيّدي يريدون حرّية ويحلمون ببلد لسنا فيه؟!».

لعق الطفل شفته المتقرّحة، وهو يقول:

«ونحن أيضاً لن نكون فيه».

ثمّ غادر في رحلة أبديّة على أجنحة من حلم وحرّيّة..

قصّ عماد الحبل المتدلّي من السقف ليتمكّن من بسط نفوذ حذائه على جثّة أسلمت روحها الحالمة، بينما تتّخذ أجساد الأطفال شكل دائرة قابلة لانهيار أحد أعمدتها في أيّ لحظة قادمة ينشب فيها مصّاصو الدماء أنيابهم الملوّثة كراهية وضغينة بهم.

قابضاً على روح يظنّ نفسه يعتقلها، تجول بناظريه بين الأجساد المتأرجحة بحبالها المشدودة حول المعاصم والأقدام، واستعاد طفولته المشبعة بالحرمان والعوز، المتأهّبة دوماً للانقضاض على المتسبّبين بها. ساقته ذكرياته إلى نضالاته ضدّ الاستغلال والاستبداد والقمع، وكيف تحمّل في سبيلها كلّ أنواع الإساءة، ولم تعد عليه إلّا بالفقر والإهانة.

خاطب نفسه: «لقد أحسنت الاختيار. لا شكّ بذلك، فما قيمة الكرامة وأنا أتلوّى جوعاً ولهفة إلى كلّ شيء، حتّى إلى حبيبة تتمرّغ ثراءً..! هؤلاء الحفنة من الأطفال يريدون إعادتي إلى القبو المعتم، حيث

كلّ الأشياء تنام فوق بعضها، ومنى تتذمّر من ذاك الازدحام وتلك القذارة وذلك الضيق».

صرخ: «لعنهم الله. لو لم يكونوا، لكنت ما زلت رجلاً أباً حرّاً».

خطف السوط من يد العميد زهير نائبه الذي يعرف أنه موجود ليراقب أولاً ردات فعله تجاه نسائم الحرية التي تلفح البلاد من جنوبه ليقدر في تقريره حجم تعاطفه مع طائفته الثائرة ويطمئن إلى ولائه الأبدي، وانهال بالضرب على أجساد أسلمت كلّ براءتها لحبلها المشدود، وغابت عن وعيها، وهو يصرخ:

«أتريدون حرّيّة وفقراً وذلاً لنا..؟ خذوا. هذا ما سنعطيكم».

بدأ يلهث دون أن يتوقّف عن جلد من يصل إليه السوط. اقترب منه زهير:

«سيّدي نحن نقوم بهذه المهمّة».

غادر يهمهم:

«اسحقوهم. حثالات حشرات صراصير. اسحقوهم».

وهو في طريقه شمّ رائحة عطرها تناديه. تذكّر عودة والدها إلى حضنه السلطويّ. ابتسم، تردّد لحظة، ثمّ تابع ليستوضح عناوين استفزّت حسّ والدها الأمنيّ.

طأطأ رأسه وترك رجليه تستندان إلى سطح مكتبه، بينما يقف قبالته ثلاثة أساتذة جامعيّين متخصّصين في علم التحليل الإعلاميّ. رمى بوجههم الصحيفة، وترك وجوههم تقابل أسفل حذائه:

«أهي إسلاميّة..؟!»

أدخلهم سؤاله في متاهة التفكير المتناقض. وما الذي يجعلها لا تكون كذلك..؟!

لا شكّ أنّه يعرف عنها ما يجهلون. تلك المرأة الحاسرة الرأس المتفنّنة أناقة، ربّما تكون إسلاميّة..؟ فنسبتها تؤكّد سنية طائفتها، وكلّهم متّهمون بالنهاية بدينهم حتّى يوم يبعثون.

صرخ بوجوههم: «صامتون لماذا..؟ كيف لم تتسرّب انتماءاتها الطائفيّة إليكم..؟ أليست كلماتها إدانة وتحريضاً وإعلان وقيعة..؟!».

التآمر ليس بالمشاركة، أيضاً بالصمت. رنّ الجرس طالباً المسؤول عن مراقبة الإعلاميّين ليضعها تحت قنّاصة عينيه حتّى تملّ التنفّس.

غادره الجميع معتذرين لتقصير غير مقصود واعدين بفكّ ألغام كلمات كلّ الصحفيّين المفخّخين تآمراً وتعاطفاً مع شعوب لا تسبّح بحمد سلاطينها.

دخلت منى إلى مكتبه محفوفة بالترحيب الذي غاب عنها الزيارة الأولى لمكتبه، عندما كان والدها مبعداً، بينما يغرق شقيقها بتفاصيل خلافاته المالية، التي تنشرها الصحف كخبر الأكشن الأوّل، وتنبري صحيفته الخاصّة للدفاع عنه وتوجيه التهم جزافاً لتجّار دمشقيّين حاول انتزاع عقود شراكة وهميّة معهم، لكنّهم وجدوا في المنقذ الاقتصاديّ ملاذاً للتقوقع في حمايته تحت طائلة دفع «الأتاوة» الشهرية.

باغتته بسؤالها الذي تهرب منه سابقاً: «أين كنت..؟!».

سألها: «أما زلت تبحثين عنّي تحت ألبسة الرجال وبين أسرّتهم..؟».

استباح عطرها الفوّاح بنفَس عميق وضحكة يصفع بها سنوات غيابه المُبهم.

أكمل:

«بحلب لسنوات طويلة ثم تنقلت بين محافظات عدة كضابط مغمور في المخابرات، ونقلت مؤخرا إلى هنا وفق نشرة تنقّلات الضباط المعتادة. لم أختر المكان، لكنهم وجدوا بي ما يشبه والدك».

قهقه:

«ربّما حبّنا المشترك لك».

- لماذا غيرت كنيتك ولماذا لم تسعَ إليّ مرة..؟!

- لم يبقَ بي ما أحمله إليك. خرجتُ مثقلاً بجراحي، مؤمناً بعبوديتي ووجوب طاعتي ومنها ألا ألتقيك ولو مصادفة أتفهمين كلامي؟!!.

- كأنّك تحدّثني عن بلد غير بلدنا يرتقي الضابط فيه صدفة إلى مكان يقود من خلاله الناس وأرزاقهم، بل وأعمارهم، أنسيت أنّني ابنة أحد الذين يجلدون هذا الوطن بسياطهم..؟ كيف تريدني أن أصدّق شاباً دخل إليهم معتقلا منبوذاً وساخطاً عليهم، وخرج من عندهم ضابطاً يتنقّل بين مناصب السلطة وعلى جثث الناس يستبيح كراما‌تهم ويتفنّن بتعذيبهم..؟ ماذا..؟ هل أقنعوك بوجهة نظرهم التي تحيلكم جميعاً لعبيد يحقّ لهم قطع ألسنتهم إن نطقوا وتغييبهم في السجون إن شعروا بإنسانيّتهم للحظة وقتلهم إن تجرّأوا على الإفصاح بحقوقهم..؟!

- إذاً تعرفين من أنتم يا مناي؟! أنتم حثالة وقتلة وموبوءون بقذاراتكم.. لكن نحبّكم ونريد أن نكون منكم، نتمسّح بكم ونتذوّق دماء الشعوب المسحوقة تلذّذاً بالسلطة. أيزعجك أنّني لست عماد الشابّ الفقير المُطأطَأ الرأس الذي لا يجرؤ على البوح بجمهورية أفلاطون إلّا بين يديك، ولا يستشعر

القوّة إلاّ وهو يسحقك حبّاً تستزيدين منه متى شئت..؟!
ماذا تريدين أن تعرفي..؟ ما هو الثمن المدفوع لوجودي في مكتب لا يتعاقب عليه إلا حثالة طائفتك من القتلة..؟ نعم دفعت الثمن. أتعرفين ما هو..؟! أنت وأنا وحلمي بأسرة صغيرة أسمع أولادي ينادونك ماما ويركضون إلى الباب هاتفين: جاء بابا..!! ذاك الملاك المنتفض حبّاً كان الثمن.
أتذكرين ما كنت تصفينني به..؟!

السلطة في بلادنا منزوعة الرجولة، فكان لابدّ أن أتجرّد من رجولتي لأكون هنا حاملاً للسوط لا مجلوداً به.

السلطة في بلادنا مهدورة الكرامة، فكان لابدّ أن أتجرّد منها ليعتليني ضابط في الأمن مرّة، ومقرّب من سيادته أخرى وأترقّع في عملي رتبة بعد الثانية.

عندما كنت تنتشين عشقاً بين يدي كنت تترفّعين إلى منصب امرأة، وأنت تتلوّين بين ذراعي ثمّ إلى منصب فتاة أحلامي وأنت تبكينني أن أزيدك عشقاً، بينما أنا كنت أسقط مرة تلو الثانية في قاع السلطة الموبوءة عهراً في كلّ مرة ينتشي بجسدي الذكوريّ حتّى الإشباع أحد أزلام هذه السلطة.

السلطة في بلادنا ماخور لا يسكنه إلّا العهَرة..
أيكفيك هذا الجواب يابنة السلطة..!

أصواتُ الهزائم

على وقع صيحات تباشير حرّيّة لن تتأخّر في مساحات الجسد العربيّ، وقد تمدّدت صبحاً لن ينجلي في ليبيا واليمن رغم قسوة ووحشية الردّ القمعيّ والوحشيّ من قبل الأمناء على القومية العربيّة كما يدّعون؟!

نهضت أحلام شبابية تستدعي وعي الذات المغيّبة عشرات السنين أين نحن..؟ ومن نحن..؟!!

سؤالان وضعا كلّ المتثاقفين أمام مرآة تعكس خداعهم على وجوههم الممسوحة الملامح، وليست الصدفة هي التي جعلت من هذين السؤالين العلامة الفارقة بين الولاء للوطن والولاء لعصابة قاتلة مهمّتها إضاعة الجواب لهذين السؤالين، حيث منهما تبدأ الحياة وبتجاوزهما تنتهي الحرّية.

«حرّية». حروف من نار وسكينة ودموع تجفّ قبل أن تتحرّر من معاقلها. كلمة تملأ الصدر هواء نقيّاً وأنت تتعشّق حروفها الواحد تلو الآخر. صرخة تساوي «الموت ولا المذلّة» في حناجر عشّاق الحياة الأبديّة.

«حرّية». وردة تتفتّح داخل نفوس أبيّة، وتشعل ناراً حارقة بأجساد عبيد السلطة والمال.

لم يكن جدالهم هذه المرّة همساً، حسب عادات السوريّين، بل كان صوتهم يزرع رعباً في قلوب حراس زنزانتهم، فيصرخون: «اصمتوا اصمتوا». وتتعالى أصواتهم: «حرّية»، بينما أحذية رجال الأمن تأخذ من

أجسادهم مرتعاً، يتجوّلون فوقها، وهم يصرخون بهم: «اصمتوا». وتتعالى صيحاتهم المبحوحة ألماً: «ح ر ي ة».

غيث يتنفّس من بين أقدامهم، بينما نال وجهه من نقرات أحذيتهم نصيبه، كان العابرون فوق جسده يسألونه عن طائفته، وكلما أكد انتمائه لطائفة الحاكم زادت نقمتهم وتحوّل الضرب العابر إلى دهس حتّى سماع هسيس الكسور في وجهه.

رجال اللواء عماد يتبرّعون بمزيد من الوحشيّة، مجاملة للكره الذي ينطق به سيّدهم تجاه والد منى، ويوثّقون بالصور ضرباتهم المريعة إلى وجه غيث، وهم يشرحون له كيف تصيب مقدّمة أحذيتهم العسكريّة أسفل بطنه لتعطب ذكورته إلى الأبد، بينما يتركون نعالهم تستبيح وجهه تارة، وظهره تارة أخرى ممدّداً بين عشرات الأجساد المغيّبة المعالم.

كان غيث يتوهّم بقايا حياة سيعيشها ليقول لوالدته ما أخفاه عنها طويلاً من ألمه، لأن يكون ابناً لعائلة حكمت بالسوط شعباً طيّباً أعطاها سبباً لحياتها، بينما أفقدت هذه العائلة الشعبَ كلّ أسباب العيش الكريم، تأوّهات أصدقائه تقطع ذكريات زمن قادم يراه جميلاً، كما نسمات آذار التي تمرّ على جروحه فتمنحها برداً وسكينة.

سأل نفسه كيف لصحافية في أحضان النظام أن تكتب على صفحتها الشخصية في الفيس بوك هذه الكلمات؟! لابدّ أنّها تنتحر وأنّ صيحات أنينها هذه أقلّ ما يمكن أن تكون عقاباً لها.

كانت أصوات هزائم النظام داخل نفوس السجناء، رجالاً ونساء، أقوى بكثير من أنّات الألم التي يطلقونها عندما تعبر بأجسادهم الآلات الحادّة لتقطع اليسير من جلدهم المدمّى بسياط الجلادين.

كان صوت حواره الداخليّ يعلو ليُسمع من حوله من المعتقلين، يضحكون غمغمة من الألم، يقول عبد الباسط ذو اللحية البنية والملامح

المغيّبة تعذيباً: «أليس ذلك الصوت الأنثويّ الذي يتأوّه حرّيّة من زنزانة النساء المقابلة لنا صوتها..؟!».

يبتلع غيث تهالكه باحثاً عن طريقة ما ليعرف إجابة لهذا السؤال المباغت، فلا يجد إلّا جلّاده الذي ينفجر وجهه فرحاً وعرقاً وهو يقول: «هذا صوت عاهرات الحرّيّة.. بِذْكِن حِرِّيّة..؟!!».

رائحة عطره ووقع رنين نعله الإيطاليّ يعلنان قدومه قبل أن يعلن فريق مرافقته ذلك بانتشاره فوق أجساد المعتقلين.

شيء ما كان يتصاعد من صدر غيث وهو يبذل جهده لفتح إحدى عينيه، ليمتلئ بمشهد رجلٍ يشبهه كالمرآة ويتردّد صوته في نفسه كصداه:

«مَن أنت أيّها القريب منّي العميق فيّ، العدوّ لي..؟»

وبينما مقدمة حذاء اللواء عماد تهرس رقبته وتتحوّل نزولاً إلى كلّ جسده، كان هو يحاول أن يزرع في أجواء الزنزانة سؤالاً واحداً:

«بماذا تضرّكم حرّيّتنا..؟».

وقع السؤال على عماد أنساه موضع قدمه بين فخذَي غيث حتّى غاب صوت أنينه الجارح، ونفرت دمعة الوداع الأخير متلمّسة طريقها إلى إجابة لـمّا تأتِ..

غاص عماد داخل جريمته وهو يتمتم: أتطلبون حرّيّة من عبيد أيّها الحمقى..؟

استيقظ من شروده على صوت يغنّي رحيل غيث الهادئ «جنّة جنّة جنّة.. سوريا يا بلدنا» ويشهق ببكاء صارخ. يقاومه عماد بسوطه المجنون على أجساد عارية: «اصمتوا اصمتوا».

وبينما يمسح أسفل حذائه ليزيل سيل الدم الذي غرق به، كان عطر منى يعبق بالمكان، وصوتها يسترجع ذاكرته إلى لحظة كان بها رجلاً وكانت هي امرأة بلا قناع..

صرخات رجعها بقايا حلم سنغتاله. كانت تلك أهمّ عبارة جاد بها خلال اجتماع طويل ضمّ رؤساء الأجهزة الأمنيّة، وهو يرسم خارطة طريق يمكن لإشعاعات الحرّية أن تعبره متسلّلة إلى مستقرّها في قلوب وعقول الرعاع من السوريّين، حسب وصفه متسائلاً: إذا كانت تستطيع المرور فعلاً من بين فوّهات بنادقنا أو أنّ صداها سيصمد أمام أزيز طلقات لن ترحم حتّى صدر طفل فيما لو تنشق بها..

ولم ينسَ قبل أن يغادر أن يخبر المجتمعين كيف اخترع طريقة جديدة لإعدام الناشطين السياسيّين، مبرهناً ذلك ببعض دم غيث العالق على نعله، وفارداً لضحكته المجلجلة مكاناً في فضاء قاعة تتقيّأ قتلة.

طلاق بمرسوم أمنيّ

كانت الطرقات تمشي بينما يتسمّر الناس في أماكنهم شاخصين إلى بارقة مرصودة تتوجّه بنادق الغدر إليها، امتلأ صدرها هواء، ليس كما عهدته سابقاً، فتحت نافذة سيارتها هواء آذار يهمس لها، يغريها أن تغادر كتلة حديد تتقوقع داخلها تستوقف السائق تتلامس حنيناً مع أرض الشوارع العاتبة لغيابها. تندسّ بين جموع غفيرة تحيط بشيء ما ترفع قامتها، وتحثّ خطاها، تبتسم لأحدهم معتذرة لتجاوزها مكانه، وتلتقي بآخر ثمّ تنعطف لتترك يدها تستأذن الواقفين، بلا حراك تدخل إلى قلب الحدث، تجد نفسها في مواجهة عين دامعة بالدم وثياب تقطر جريمة نكراء. ينتزع قلبها ذلك الوجه الجميل حتّى الصفاء بينما كانت تتقدّم كان الجميع يحثّون الخطا إلى الخلف قليلاً كما يصيح أحدهم، لكنّها تتقدّم وتتقدّم حتى انتحار المسافات، تلقي بمعطفها الخفيف فوق جثّة لاتزال بقايا حياة مغادرة شرفاتها للتوّ تستدير وتخرج من دائرة الموت القادم من بين قدميه.

في مكتبها المطلّ على الشارع تسمع خطوات مستعجلة، وعبر شاشة عربيّة احتلّت مكانها لتحتلّ ذاكرتنا، كان ثمّة خبر خجول عن وقفة احتجاجيّة لناشطين في الحريقة، تذكّرت أنّها مرّت صباحاً من هناك، وكان لعبق الهواء رائحة متسلّلة لم تغادرها للتوّ. تنقّلت بين فضائية سوريّة تعيش تفاصيل حياة بهيّة، وأخرى عربيّة تنثر بلطف شديد ملامح ربيع يحطّ رحاله في ربوعنا. تحسّست رأسها لاكتشاف أنّه لازال يعتلي رقبتها،

وسألت نفسها، وهي تهمس خوف أن يسمعها الحرّاس أحقّاً هذه الفضائيّة المحلّيّة تشبهنا وتصوّر أزقّة مدننا..؟

غرقت في نفس عميق لملمت ما تبقّى لها من أوراق مبعثرة كانت تحاصرها لتكتب عن شيء تستشعره قادماً دون دعوة، لكن بقايا سكائر أقبيتهم المطفأة على يدها ذكّرتها بموعد الهروب إلى شوارع مدينتها خلاصاً من أن تكتبها الأوراق بدلاً من كتابتها.

غادرت مكتبها بينما توزع العاملون في صحيفتها بين متأثر لقرار اقالتها وشامت فرح بما حل بها، أرادت أن تحذر بعضهم من أفعى رقطاء تتجول بينهم وتنقل لأسياد أقبية التعذيب همساتهم، خطواتها المغادرة على وقع تصفيق بعضهم وهي تحتضن أوراقها تمنحها قدرة على توزيع ابتسامة وداع بينما تشعر بأسف آخرين حتى من القاء كلمة وداع عليها فتهز برأسها لهم ويفتح سائقها باب سيارتها الخاصة معلناً الوداع الأخير لها

مشَت على ضفّة نهر يسترجع ذكرياته كما لم يحدث من سنوات كثيرة مضت، فبردى الذي ردموا أقنية ممرّاته في وداع جنائزيّ ينهض من تحت رفاته معلناً ولادته من جديد، هادراً بصوته كلمات لا تزال تحفر في ذاكرتها.

كان خريره يبوح بأسرار استقلال سورية، فتسأل نفسها: «كيف لرجال صنعتهم الحرّية قبل أن يناضلوا من أجلها أن يرتهنوا اليوم لعبودية أجسادهم..؟ لا شكّ أنّهم في لحظة ما سيثبتون للعالم أنّهم رجال كما عرفتهم ضفاف هذا النهر وجنباته من غوطتيه».

تلمّست يده الغارقة حزناً وقد فاجأها بطلب الفراق. التفتت إليه، رسمت داخل عينيها بريق نظراته:

- طالق.. طالق.. طالق..

سمعت أصواتهم جميعاً نعم انها أصوات سادة الأقبية وحراس نفق الذل عماد وعلي ورستم وجميل وعمران واياد ورامي وسالم و. و و. و. لم يكن بين تلك الأصوات صوت زوجها. كانت شفاهه فقط تتحرّك ودموع عينيه تتحدّث عن ذكريات عشق طفوليّ مغتال.

لا تزال ضفائرها تطير مع أحلامها وتجمعهما في مقهى على مفرق الطريق بين كلية الآداب وكلية الهندسة المدنية. شابّ وسيم يصرخ أمام روّاد المقهى: أحبّك.. وسأبقى إلى الأبد..

تقاطع كلمة «طالق» ذكرياتها. تسأله: أهذا هو «الأبد»..؟

أهنا ينتهي الحبّ وتموت الكلمة. يا فيروز.. أتاري الكلام فعلاً بيضلو كلام وكل شي بيخلص حتّى الأحلام..

أتقولها علناً بعد عشرين عاماً..؟

غرق زوجها بتفاصيل أسبابه الأمنية:

أنت مُدانة بحبّ الشعب..

ضحكت. توجّعت استغراباً ودهشة وذكريات ذابت على صقيع مصلحة لم تعد ممكنة التحقّق لرجل لم يعد إلا من ذكريات منصب سلطويّ ولّى بتهمة حبّ الشعب. حملت هزيمة أنوثتها وجراح سياط جلّادها، وأملاً بغد تراه قريباً لا يأتيها الشكّ من قربه، حتّى لتكاد ترى ملامح صبحه من غروب نهارها هذا.

عبثُ الأسرّة

عبق عطرها كعادته يسبقها إليه، لكنّ أنفه المزكوم برائحة الدم يتجاهلها إلى مشاغله الكثيرة. لابدّ أنّها عابرة ممرّ والدها المستشار الكهل، لكنّ نقرات أصابعها تستعيده إليها. تدفع الباب وتدخل رأسها مواربة:

أيسمح سيّدي بفنجان قهوة مشتركة..؟

تخطو إليه برشاقتها. فستانها الأسود يغري نظره بالبحث في تفاصيلها. كلساتها الشفّافة تزيد شهيّة سؤاله عن جسدها، وبعض صدرها العاري حتّى ضفاف امتزاج بياض نهدها بسمرة هالة حلمتها يأخذه إلى غرفة تحت درج بناء متهالك، حين كانت تعبر بين كراكيبه المتناثرة على الأرض متذمّرة تجلس على أريكته الوحيدة، تطلق ضحكاتها، وصوت موسيقى جيمس لاست يشدّها إليه، فتلتصق به، تراقصه، ترتفع بين ذراعيه لتهوي تحت جسده الثائر حبّاً والمتفجّر رغبة.

– أأنت هنا يا سيادة اللواء..؟

– بل هناك حيث كنتِ سيّدة الحبّ تتلوّين بين يدي امرأة أسطوريّة وأعتصرك عشقاً ساحراً.

تتأمّل ملامحه. ترى ابنها «غيث» بعد عشرين عاماً، وقد اكتسى شعره بياضاً.

يسألها: أأنت هنا..؟

– بل هناك. بعد عشرين عاماً وأولاد ابني غيث من حولي.

- ابنك غيث وليس ابن شقيقك..؟؟!!

- أمتزوّج غيث..؟

تضحك.

- لا. لكنّني أراه بك وقد عبرت السنون مفارق شعره.

يعيدها إلى الماضي، يتسلّل إلى رجولته الغائرة فيها فترتجف شوقاً إليه.

تسأله: أما زالت كلماتي تستثيرك..؟!

يضحك بينما أصابعه تداعب قلماً على مكتبه، وهي تفترسه بنظراتها، ويدها تندسّ بين يديه لتخطف قلمه. يمسكها. يعصر أصابعها. تتأوّه. يقف من خلف مكتبه، يجرّها إليه، يحرّك يده ممسّداً أعلى وجنتيها، بينما تغور يده الأخرى إلى ظهرها. يشتمّ عطر خلاياها من خلف أذنها، يترك لأعلى أنفه مهمّة الكشف عن عبقها المتناثر على عنقها.

تخلع حذاءها. تترك له حرّيّة الانتقال بين خلاياها، لكنّه يبقى مكتفياً بنصفها العلويّ، وهي تحاول الالتصاق به، تتنقّل بيديها بين كتفيه إلى أسفل ظهره، وفي لحظة تسرقها مداعبة، تسأل هامسة: أتشتاقني..؟

يتلمّس نفسه كمن يقرأ تميمته، لكنّه يعلم أنّ الميت لا توقظه الطبول.

يبتلع غصّته. يعيدها إلى مقعدها، يسألها: كيف حال أبيك بعد هروب زوجك بماله..؟

تبتلع أسفها وهي تستعيد لمسات أناقتها المهدورة على حلم تبدّد.

تسأله: لماذا..؟

ينظر إليها منتظراً سؤالاً واضحاً بينما هو يدرك أنّ كلّ أسئلتها لا جواب عنده عنها يشفي جراح مآسيها.

تقاطعه:

أعدت تغتابني بصمتك..؟!

صوت قهقهته المخنوقة التي تحاصرها المخاوف أعجزه عن كتم حنينه إلى الماضي المتشبّع بحبّها.

- منى.. كم رجلاً مرّ بك ولمح تلك الابتسامة التي ترتسم عميقاً على محيّاك وأنت تنتفضين رغبة..؟! أما غيّرتك السنون واستباحت بعض جسدك لتوشم عليك تقاسيم العمر الهارب..؟! وجهك يأبى أن يعترف. عيناك تقاومان عقدك السادس، فماذا يختبئ تحت ثنايا هذا الفستان..؟ ألم يترك حملك بصماته على محيط سرّتك..؟
- أما بحثت عنّي بين نسائك الكثيرات..؟ هل شممت فيهنّ رائحة أنوثتي وهل عطّرت أثداءهنّ بعبق أنفاسك..؟
- نسائي..؟! «ويضحك باكياً ألمه». آهٍ لو تعرفين أنّك كلّ نسائي وعند حدودك غادرتك مودّعاً رجولتي بين تخوم ذكرياتك..! أتذكرين حلمي ببيت يجمعنا..؟ آهٍ يا منى لو تذكرين..!
- كلّ ما أردته منك أن تكون لي أعيش بين يديك امرأة وأموت امرأة.
- ما أنت الآن أيّتها المرأة الجميلة..؟
- أنا بقاياك يا عماد. ذكريات من ليلة سافرت فيها أنوثتي عبرك، جمعتُ من دوحك ما أستطيع ولم يبقَ منّي إلّا أنت. ليتك تعرف ما بقي منّي..! بحثت عنك بين الرجال فما كنت ولا كانوا رجالاً. عاشرت على سريري كثيرين أملاً في نسيانك فنسيتهم جميعاً وبقيت أنت. وكيف لا أعرف أنّك هنا وكيف تكون أنت هنا ولا تعرفني..؟!
- منى. لم أكن هنا إلّا منذ عامين فقط، وكنت أرقبك في كلّ مكان، أمشي خلف نسائم عطرك. منذ أن قرأت عنك في

مذكرات سلام عرفت أنّك بين الأرائك وفوق الأسرّة تبحثين عنّي بجسد عارٍ وذاكرة مشوّهة. كنت أظنّك تصلحين امرأة وزوجة وأمّاً، لكن خانتني الرؤيا، فأنت لا تصلحين إلّا عابثة فوق الأسرّة، ولكن برغم ذلك فأنا أحبّك. بعضي يحبّك دون بعضي.

- لكن كيف أتيت إلى هنا؟ مَن أنت؟ كيف تحوّلت من رجل يكره السلطة إلى ابن لها..؟

- لم أكن يوماً إلّا ابناً لها. افهمي..!! كلّنا أولاد للسلطة، بعضنا أولادها شرعاً وبعضنا أولاد حرام، ولأنّني لست من طائفتكم فأنا لست ابناً شرعيّاً. أنا ابن حرام يتسلّق زواريبها ويتشدّق بشعارات مناهضة لها، ليكشف عبرها أعداء السلطة. نعم. كنت مدسوساً بين رفاقي في الجامعة أتشدّق ككثيرين بشعارات اصطنعناها لنوهم الناس أنّنا منهم فيأمنون لنا بما تحت ألسنتهم. كنتُ مندوباً أمنيّاً إلى الجامعة، بعد أن أمضيت عاماً في السجن بتهمة انتسابي إلى حزب معارض وجدت فيه أملي بتسلق وضاعة مكانتي الاجتماعية، ليس صعباً على شاب يلتهم عبارات الايدلوجيات ويعرف تكتيكات استخدامها أن يبرع ليحتل مكاناً متقدما بين المعارضين ثم يساوم عليه لاحقاً هههههه يضحك، لم يكن لدي وساطة أجد من خلالها عملا أعيش من خلاله فعينني والدك بعد أن اقتنع بقدراتي الكلامية وهشاشة إيماني بهم بوظيفة جاسوس عليهم أتنقل بين مكاتبهم السرية وأقدم بتقاريري عنهم عرابين ولاءاتي لطغمة حاكمة حتى على قناعاتنا،وهكذا خرجت كما كثيرين رقيباً عليهم أستظل بتاريخي المناضل كسجين سياسي في أقبيتهم وأتابع دراستي في

كلية الطب التي تعرفت فيها عليك بزياراتك لأشباهك من أولاد المسؤولين وأزلامهم هناك.

- ولكن لماذا تركتني إذاً..؟

- لأنّ خطئي أنّني تعرّفت إليك وهو ما لا يغفر لي، فأنت ابنة سيّد في السلطة وأنا عبد فيها، فكانت عقوبتي أن عدت إلى السجن بالتهمة التي فصّلها لي والدك، وشاء القدر أن يخرجني من ظلمه الذي أوقعتني به هيئتي التي عشقتها، لأقع فريسة ضابط كبير يهوى الرجال، فكان بوّابتي إلى عملي مرّة أخرى مع ترقيات تتناسب وهتك رجولتي بين يديه وأمثاله من أسياد السلطة. فهل تفهمين الآن لماذا أنا هنا ومَن أنا..؟!

نعم أنا الآن جزء من هذا الماخور الذي تسمّينه سُلطة. كلّ مَن يشارك هذه السلطة يجب أن يكون ممسوساً بعهرها اليوم. وكلّ مَن يبقى إلى جانبها ممسوك برسنه، ولذلك لم يبقَ فيها إلّا العبيد. نعم أنعم بمزاياها بينما أفتقد أمامها وبسببها رجولتي وسيادتي.

لماذا لا أقترب منك..؟ تسألين. لأنّني الآن كما أنت مجرّد وعاء للآخرين. تنقّلت بين أسرّتهم حتّى إذا أمنوا جانبي أصبحت مثلهم سيّداً في ماخورهم هذا لا أستطيع مغادرته وعليّ الدفاع عن «شرف» البقاء فيه.

يعلو صوت ضحكته. تتمازج دموعه بآهاته. يغادر كرسيّه، يلهث وهو ينحني على ركبته أمامها، يمدّ يديه إلى كتفيها، يعرّيها، يرفع عنها وزر ثيابها. تتحرّك هي عن كرسيّها لتخلع فستانها من تحت أرجلها. يضع رأسه في حضنها بينما هي تحاول أن تدفعه لتحلّ أزرار قميصه الإنكليزيّ، تهمس في أذنه: ستعود لي رجلاً.

تسأله: أرأيت غيث؟ أرأيت كيف من عينيه ينبثق نورك ويعلن عبر وجهه أنّه وريثك بالحسن حتّى أكاد أراه مرآتك أيّها الحبيب الأب

الجميل.. يا من زرعت بي كلّ حسنك لأخرج مني هذا الولد الشبيه بك. غيث، يا عماد، ابن لنا. كان ثمرة حبّنا. أشعر اليوم أنّني أستعيده بأحشائي معك.

يرفع وجهه إليها تاركاً ليديه المتسلّقتين جسدها أن تستعينا بها فتعجز عن ذلك. يرتمي بينما هي تحاول أن ترسم فرحتها على وجهها بخلاصها من سرّ حفظته ستّة وعشرين عاماً وعادت لتلقيه على مسامعه في لحظة تاقت إليها وهو بين يديها عارياً كما كانت تشتهيه دائماً.

عماد المتّكئ على كفّيه أرضاً صامتاً يترك لعيونه أن تبحث في صدق كلماتها.

غيث ابني أنا. حاول أن يقولها، لكنّ لسانه أيضاً تسرّب إليه العجز. حاول أن يحرّكه داخل فمه، وكلّ ما استطاعه أن يترك بحراً من دموعه ينسال عبر خدّه.

«غيث.. غيث..». نظر إلى أسفل حذائه المرميّ بجانبه. بقع الدم لا تزال تلوّثه.. «غيث.. غيث..». ذلك الشعور الغريب يسكنه.

منى تتراقص فرحاً بخلاصها من صمت أرعبها سنوات وسنوات. تشعر أنّها بذلك الخبر كافأت عماداً المتآكل من داخله، منحته سبباً حقيقيّاً ليعود رجلاً كما عرفته.

تقدّمت منه، أرادت أن تفترش البلاط الرخاميّ لكنّ لسعة برد آذار جعلتها تبحث عن سجّادة تركن إليها عريها الفاضح.

همست: عماد.

وحدها قطرات نازفة من عينيه توحي أنّه لا زال حاضراً أمامها. ارتمت لتحتضن صدره، فتهاوى أرضاً.

صار همسها صراخاً: عماد.

لا مجيب.

عماد..

تهاوت بجسدها فوقه، أمسكت رأسه، اقتربت بوجهها.

عماد..

بين الهمس والصراخ، دموع هاربة اختلطت بدماء لم تدرك مصدرها. مسحتها بيديها.

صرخة مدوّية: عماد.

دخل الحارس الشخصيّ بينما جسدها العاري يعانق عري جسد اللواء عماد.. أطرق برأسه. قال: سيدي سيدي..

صراخها يتحوّل إلى عويل. دخل آخرون ثمّ تسمّروا أمام جسدين يغلّفهما دمع ودم، وصوتها المجنون يصرخ: عماد.. غيث ابنك..

دمعه ينساب. كلمة واحدة تغلّبت على عجزه: قتلتُه.. قتلته..

الحشود من جانبيهما تزداد. والدها يفرّقهم بينما يقطع الطريق إليها، وهي تصرخ: «غيث ابنك..». ويجيبها: «قتلتُه..».

وقف الدكتور فاروق مدير مكتبه الذي ورثه عن والدها أمامهما وهو يستذكر قوافل شابات وشباب وشيوخ وحتى معوقين مروا من هذا المكتب عابرين طريقهم إلى زنازين الموت العابق بالمكان كل جريمتهم التي قضوا من أجلها أنهم لم يقروا بعبوديتهم واعتنقوا مذهب الحرية، حاول أن يتقدم نحوها ليواسي فيها الأم المكلومة لكنه شاهدٌ على شراكتها بتغييب كثير من زميلاتها وزملائها خلف جدران التعذيب لأنهم لم يقروا لها بسيادتها عليهم أو بتفوق جنسها على طبيعتهم البشرية ومنبتهم الطبقي.

أنين وجعها وهي تدلي باعترافات نسب غيث إلى جلاد لم يعنه فحياة شاب تتوسل أمه على قدمي اللواء عماد العفو لابنها لزلة لسان نطق بها بين زملائه لم تحرك داخله أية نوازع انسانية لمنع جريمة قتل الشاب أمام ناظريها برصاصة اخترقت قلبها قبل اختراقها جسده.

قوافل من صور المعذبين حتى عتبات الموت تمر به فيحاول الصراخ بها لكن صوته يخونه يقول لمنى: غيث قتله قاتل صنعه أبوك كما قتل كثيرين غيره وسيقتل من يجلس هنا الكثيرين بعده، تستحضره صور الأطفال المدلاة أجسادهم من سقف سجنهم وهم يصرخون الموت ولا المذلة بينما يقتلع جلادهم أظافرهم ويحزون بحقدهم على ظهورهم حكاية مارد خرج منهم ولن يستسلم، نعم فهسيس عظام الطفل تحت قدم عماد يغلب على عويل منى التي عرفها دائما بالمستهترة فتغيب صورتها القبيحةالعارية عن عيني الدكتور عماد لتحل مكانها صورة تلك الأم وكيف حملت طفلها العائد إليها جثة بلا حراك وهي تقول له سيولد غيرك لن يقتلوا الا جسدك.

سيزيدنا موتك حياة.

مشى اللواء أبو حيدر نحوها. خلع جاكيته، رماه فوق جسدها الملتصق باللواء عماد. أمر جميع الحاضرين بالخروج والانتظار بباص المبيت.

وهي لا تزال تكرّر عبارتها وهو لا يزال يؤكّد جريمته.

- تسرّب إليه ضوء الحرّيّة في دولة دفنت بنفق ذلّ فقتلته كما نقتل كلّ عشّاق ذاك الشعاع الموهوم تقرّباً منكم أنتم عبدة الكراسي السلطويّة.

كانت كلمات عماد تشبه في مصطلحاتها كلمات غيث، لكنّ أحدهما كان يقولها فرحاً بالحرّيّة بينما الآخر يريد أن يبرّر مقتلها.

تصرخ به: غيث ابنك.

بينما والدها يرفعها عن جسد عماد ليضع ثلاث رصاصات برأسه معلناً بعد قليل:

انتحار ضابط كبير في مكتبه.

وفي خبر عاجل عبر القناة الفضائيّة:

عمليّة إرهابيّة تفجّر باصاً للمبيت تابعاً لجهة أمنيّة بداخله العديد من العناصر الأمنيّة.

نفق آخر..؟!

ربّما نهاية نفق الذلّ هناك تلوح أنوارها من بعيد، نسير نحوها، نتتبّع بصيصها، نتهافت فوق طرقاتها، لعلّ السائرين جميعهم منّا يخرجون معاً نحو النور. لكنّ إشارة ما تقول:

انتظر.. تمهّل.. فنفق آخر على الطريق. لم تتوضّح معالم الشارة المكتوبة في بدايته، لكنّ أحداً ما لم يكتب صراحة أنّ نفق الذلّ الذي عبرناه خمسين سنة قد انتهى..

فأيّ ملامح لذاك النفق القادم..؟!

نفق الذلّ

سميرة المسالمة

ربما يتفرَد بلدنا بميزة أنَ الصحفيَ يتحوَل من رقيب وصاحب فكر إلى شريك، وأحياناً محرَض على جريمة منظمة تستهدف الإنسان في أبسط متطلبات حياته، وتلغي حقوقه في أقلَ درجاتها الإنسانيَة.

أكتب لأنَ الكتابة تعرَي ضعفنا، تكشف عمق تناقضاتنا، وتضعنا في مواجهة مع روحنا، كما خلقها **الله**، قبل أن تمتدَ إليها بشاعة أطماعنا الملوَثة بضغائننا، أريد دائماً أن أعرف حجم ذلك التشوَه الذي سكنني، فأخطَ كلماتي وأرقب عكسها الذي أنشره، لم نسمح لهم فقط أن يشوَهونا، بل نتشارك معهم جريمة تغييب الشعب من حساباتنا. نكتب من أجلنا ككتَاب، ومن أجلهم كسلطة، والناس - الجماهير العريضة - تسقط من حساباتنا كما سقطت من حسابات الحاكم والحلقات التي تدور في فلكه من قبلنا.


ISBN: 978-614-02-1010-3
9 786140 210103



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com